وليد إخلاصي

الفتوحات

رواية عربية



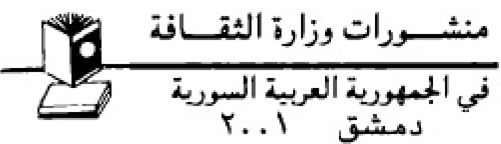


روايات عربية

وليد إخلاصي

الفتوحات

رواية عربية


منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠١

الفتوحات : رواية عربية / وليد إخلاصي ٠ - دمشق : وزارة الثقافة، ٢٠٠١ ٠ - ٢٦٤ ص؛ ٢٠سم ٠

١ - ٨١٣,٠٣ اخ ل ف ٢- العنوان ٣- إخلاصي

مكتبة الأسد

الإيداع القانوني: ١٠٠٦ / ٦ / ٢٠٠١

-١-

جاءني في المنام، وهتف بكلمات ما عدت أذكرها ولكني سمعته يقول لي:

- قم واغتسل.

فوجدتني أغطس في جرة كبيرة، بطنها المنتفخة تتجاوز حدود الفوهة والقاعدة، وقد وُشم فخارها الكالح بخيط مشغول سميك أشبه بأفعى سوداء ذات رأس، فشعرت ببرودة جسدها تتسرب إلى ماء الجرة التي طفح الماء منها ليسيل على جوانبها المنتفخة كبطن امرأة بكرية، كان يسيل بهدوء لزج فلم تأبه له الأفعى، التي ظلت جامدة تسكن طينها المشوي غير آبهة بما يجري.

قال لي:

- غادر، فأنت لا تغتسل.

إذّاك حاولت أن أستلقي في طست لا يتسع إلاّ لولد صغير، لكن رأسي المستديرة كطابة صوف خشن، ظلّت

خارج الطست، وكانت ساقاي ترفسان الهواء بمرح نزق، وتخرج ضوضاء غير مفهومة من مخي الذي يتحرك بتلقائية طفولية. ضحك بامتعاض وهو يقول لي:

- هيا واغتسل بالماء الجاري فلعله أفضل لطهارتك.

فنظرت إلى نهر لم يبق منه سوى الضفة اليمنى وجانب من اليسرى، هزيلتان وكأنهما حدود مرسومة على الورق، وكان ثمة أسماك التصقت بالقاع المتشقق، فانكشف المنظر لباصري بضع كومات متناثرة من الطين الذي لم يجف بعد، وجعل ينزّ رطوبة سابقة، فتنفست تلال الطين مع أسماكها بصعوبة، وكأنها تجاهد من أجل ولادة نهر جديد.

قلت لنفسي، وكأن صوتي بات مسموعاً:

- كيف لي أن أغتسل؟

ثم قلت لنفسي، وكأنما أردد أنشودة صامتة:

- يبدو أني لن أغتسل بعد اليوم.

وسمعت صوتاًيجلجل برنة آتية من تحت قبة كتيمة، كأنما صنعت من ورق رصاصي:

- لايمكن أن تنتهي قبل أن تغتسل.

وهتفت باستحياء متوسل :

- ولكنني أريد أن أبدأ .

وقال لي وهو يقودني بعينيه اللتين خيل إليّ أنهما تلتصقان بوجهي، وكانتا تبدوان وكأنهما دون أي لون :

- لكي تبدأ، عليك أن تعرف كيف تنتهي .

وهكذا ساورني شعور بخوف عظيم، وأنا أزحف عارياً على مرج من أعشاب مدببة، وعلمت أني لن أقاوم ألم الجلد الذي جعل يتشقق في كفيّ وركبتيّ، إلا أنني ظللت أسعى نحو نبع قريب يفيض ماؤه ليملأ المجرى الضيق الذي ظهر لي أنه لا يتسع لجسدي، وأنا أعاينه من جديد ليبدو غريباً عني . قال لي :

- اغتسْل .

فتملكتني الحيرة وأنا أحاول أن أنحشر في المجرى الذي كان بارداً، ولكنني لم أفلح، فقال لي معاتباً :

- لا مهرب لك من الاغتسال إذا أردت النجاة .

وتفجرت فقاقيع الحيرة من جديد في جسدي، وجاهدت أن أحشر نفسي بقوة في المجرى الذي زادت برودته، فلم

أستطع لضيق ذلك المجرى الذي ظهر منكمشاً على نفسه يقاوم أي غريب. وقال لي من جديد:

- لا مهرب لك من الاغتسال إذا أردت النجاة.

فما لبثت أن هتفت كمستجير من ضياع محتوم:

- أريد أن أبدأ.

وكان كل ما أريده هو نقطة بداية، فأنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً دون أن أبدأ.

ومرّ نوع من الزمن المتشوش، لأكتشف في نهاية مروره المتقطع أنني أغوص في رمل دافىء ناعم يبتلع أي وزن يمر على سطحه المتماوج كبحيرة وديعة، فتلفت من حولي لأجد العراء متعرياً من كل شيء، فبحثت عن قشة أتمسك بها فلم أعثر على منقذ. سمعت صوته ينفذ في عظامي الفارغة:

- اغتسل.

فابتسمت ساخراً، الأمل في أي ماء كان مستحيلاً. قال الصوت:

- الرمل يغسلك.

فاختفى رأسي، لأسمع صوته عبر الذرات الناعمة يوشوشني:

- لا تختبىء كالكافر .

بعد ذلك وجدتني أجلس على مقعد من حجر صلد، فتحسست قساوته، بينما صوته ظل يأتيني من فوق ومن تحت ومن كل جانب، فألبث ساكناً لا تتحرك فيّ عضلة. كان خوفي يتصبب مني وكأنه دمي ينز من كل الفتحات، وكانت المسام تنزف. قال وكأن صوته قادم من جب عميق:

- لماذا؟

أجبت بلسان متخشب:

- إني لا أعرف.

فتساءل بسخرية معذبة:

- هل أنت مع الكفر، أم أنت مع الشكر؟

فأمسك لساني عن جواب، بينما عقلي الذي خلته غادرني قد توقف. قال:

- الكفر أم السُكر!

فتحرك المقعد من تحتي، واهتز منبهاً كأنما يحثني على جواب ما، ولكن عجزي كان يلتصق بالحجر الصلب فيمنعني من الانزلاق نحو أسفل، كنت أدرك مداه. قال من جديد:

- الكفر أم السُكر !

فقلت لنفسي معزياً :

- ليتني أسكر فأنسى .

وكأن كلماتي المهموسة وصلت مسامعه المتيقظة، فهتف بي :

- أنت تبحث عن اللاوعي .

وعلمت أخيراً أنه يريد محاورتي ، فقلت :

- ليتني أسكر !

قال بصوت كالجلجلة :

- إذا سكرت فأنت واجد ما تريد .

- وماذا يحدث لي لو أنني كفرت؟

تساءلت بلهفة ليجيبني بصوت واثق :

- إذا كفرت فأنت تعرف ما تريد .

هتفت والدموع تملأ حنجرتي :

- أنا لا أجد ما أريد ، كما أنني لا أعر ف ما أريد .

قال لي وكأنما يرق لي قلبه ناصحاً :

- أنت في حالة لا مكان لها عندي، فإما الكفر وإما السكر.

فتوسلت إليه أن يدلني، فلا مرشد لي، قال:

- أنت تدلّ نفسك.

وانتصب باب كبير من خشب متشقق ساهمت آلاف المسامير في كسر دعوة حنون للدخول عبره أو الخروج منه. تبادلنا نظرات شك حائرة، ثم توجهت نحوه لأدقّ عليه بقبضتي اليائسة، فإذا به ينفرج ببطء مرسلاً صريراً مزلزلاً، فانتظرت فتحة منه تسمح لجسدي أن يمرق منها، فدخلت لأجد باباً آخر يقف أمامي بعناد وقسوة كادت أن تشلني فمنعتني عن العبور في أول محاولة، ولكنه في الثانية وأنا أدفعه بقوة تجمعت في ساعدي انفتح بمصراعيه عن جدار يرتفع في السماء يشكل استحالة صامتة، فارتددت على عقبي إلى مقعدي الحجري لأجدني مستقراً عليه بهدوء وكأني لم أفقد قبل لحظات كل احتمال لطمأنينة أو تسليم. قال لي وكأنه يعاين التصاقي بالمقعد:

- لا تخف، واسألني فأنا لك مجيب.

قلت سائلاً: كيف أغتسل؟ فأجابني قاطعاً:

- ليس بالماء وحده يكون الاغتسال .

- الكفر أم السكر؟

هكذا تساءلت من جديد، فقال لي وكأنه طوى صفحة قديمة ليبدأ لحظة ودّ: -الكفر وعي، ولقد أضعتَ وعيَكَ، وأما السُكر فلا تقدر عليه لأنّك لاترى ماهو وراء الرؤية .

- لقد أضعتني .

هذا ما هتفت بـه أتغنَّى بيأسي، ولكن صوته سرعان ما جاءني :

- اقترب مني .

فاقتربت من نبع الصوت، وتقدمت مقترباً، وما لبثت أن ملت بجذعي نحو نور لغته الواضحة أود لو لامسته، فوجدتني أمسك برأسي وقد تزايدت الطرقات العنيفة بداخله وكأن طبول العالم تقرع فيه دون انتظام. صرخت آنذاك من رعب يتملكني، واستيقظت .

كان الفراش رطباً، وكنت ما أزال أتعرق فشعرت بعطش شديد. وكانت العتمة أشد من السواد، فتلمست الطريق إلى النور فلم أجده، وتعثرت في طريقي إلى النافذة الغربية لأشدّ

الستارة التي سمح انفراجها لنور الفجر أن يغمر الغرفة، وانفرجت عن ضوء يشبه زلال البيض، وكأن بيضة المدينة انفلقت ليتدفق منها إحساس غامر بالحياة.

وكان الفجر قد قطع مرحلة الولادة، فبانت لي عن بعد حمامات بيض حطت على طرف السور المتآكل وهو يكلل البناء القديم المجاور، والذي كان قد تقرر هدمه منذ سنين، فالحارة قد شاخت ولكن أصواتاً تعالت في المدينة تطالب بالحفاظ على الحي الذي ظلّ يقاوم الزلازل وخطط التمدن الزاحفة على المدينة.

وابتلعت ريقي وأنا أستند على حافة النافذة أراقب صدري الذي كان مايزال يستجيب لأنفاس متلاحقة ظلت تتردد، إلى أن هدأت مع تأكدي من خروج الشمس إلى كبد السماء. وابتدأت ضجة السكان في المنازل المحيطة بالدار، فسمعت بكاء طفل يخالطه نداء أم على أولادها بزعيق عجوز تنادي على أحد من عائلتها تحثه على الذهاب لجلب الخبز. كنت أحس أنني الوحيد الذي يعيش في مجموعة من البشر ترسل الضوضاء والحركة التي كان لابد منها للشعور بأن الحياة عادت من جديد بعد ليل ساكن.

-٢-

عدت أجلس على طرف الفراش الذي تجمعت من حوله المساحة التي بتّ أنتمي إليها بقوة. مكتبتي وطاولتي ومقعدان ما عاد واحد يشغل سوى واحد منها. حاولت أن أتذكر كل شيء مرّ علي في أيامي السابقة، فلم يكن هناك سوى حلم الليلة التي انقضت، وكنت أجاهد كي أستعيد كل لحظة مرت عليّ فيه، وهأنذا قادر على استذكاره وتسجيله كأول حلم متكامل، وكأنه عرضٌ على مخيلتي لكي يزيد من ضياعي ويأسي.

وها هي السنة الثالثة تعبر درب حياتي وأنا فيها عاطل عن الكتابة، لا يغريني قلم أو صفحة بيضاء تستلقي أمام عيني بلا إغراء، فهل كان الحلم تفسيراً لذاك العجز الذي أصابني؟ أم أنها لحظة ولادة جديدة وتبدأ منها مسيرة أخرى؟ وهل تبشر الأحلام بحضنٍ ألجأ إليه بحثاً عن طمأنينة بعد أن فقدت كل حضن.

في بداية الجفاف الذي أصاب أرضي، ظننت أن أصابعي لا تطاوعني، وباتت الأقلام ذلك العبء الذي أخشاه، فاعتمدت شاباً كان يقرأ كل ما أكتب ويعلن عن إعجابه، فاستجاب لدعوتي أن يمد لي يد العون، وكان يبحث عن عمل بعد تخرجه من كلية الآداب، فأصبح يكتب بحماسة ما أحاول أن أمليه عليه، ولكن الأيام تمر دون أن أستطيع أن أنجز عملاً بدأت به، فيقضي وقته منتظراً إشارتي إليه بتسجيل جملة ما، وإذا بنا بعد مدّة نمضي الوقت صامتين نتبادل النظرات فأحاول الابتسام في وجهه فتتساءل عيناه وكأنه يحثني على النطق بشيء، فتبين لي أن الأمر على ما يبدو لم تكن له علاقة بالأصابع واستخدام الأقلام، بل أن المخيلة تحولت إلى صحراء لا تبشر بأي عشب. علمت أن التلال القاحلة التي تظهر بين مدّة وأخرى في صحرائي، سرعان ما تمسحها الرياح الجافة.

لجأت بعد حين إلى الإملاء على آلة التسجيل. واستعنت بالبدايات التي علمتنيها الحكايات القديمة، فما ألبث أن أقول «يحكى أنّ» حتى أوقف المسجلة. وحسبت أن تكرار فكرة ما قد يدفعني إلى المتابعة، ولكنني لم أستطع أن أحقق أي نجاح في استعادة أفكاري إلى سكة الكتابة.

وهكذا تحولت القراءة النهمة إلى وسيلة لنسيان فقر عقلي الذي ما عاد ينجب، وازداد لوم زوجتي لانطوائي على نفسي، فكانت تجدني حبيس الغرفة ومن حولي عشرات الكتب والمجلات، ثم صرخت إنها بشوق إلى ابننا الذي هاجر شاباً صغيراً إلى استراليا، فتأملت شكواها وقلت لها أنت تمتلكين الحرية في فعل ماتشائين فخرجت من الدار مسافرة وكأنما تريد أن تتخلص من عبء السنين الذي تشاركنا فيه.

كان ابننا قد هاجر منذ سنوات بحثاً عن الرزق، فبات هناك مشروع تاجر جلود قد يكون خطير الشأن في السنوات القادمة. وهكذا باتت الرسائل ومكالمات الهاتف القصيرة وسيلة للتواصل بين شقي العائلة. ثم جاءني خبر قدوم حفيدي الاسترالي فانشغلت جدته عن مجرد السؤال عني، ويبدو أنها قررت إقامة التوازن بين حياتنا المشتركة وبين أسرة ابننا، فخسرت أنا ذلك التوازن واستمرت زوجتي هناك. وهكَذا جعلت أسلّي نفسي بالبحث عن أخبار الآثار في أنحاء المدينة، لاكتشف بعد جهد بسيط أنني أنتمي إلى رقعة من الجغرافيا تتعدد فيها الثقافات والديانات وتمتص خلاصات هامة من جهود البشرية التي أعطت للكون أهمية يمكن لي أن أفاخر بها وأن أتغلب على جانب من ضياعي، الذي اكتشفت أن لا معنى

له. وكان البحث مسلياً نافعاً يؤهلني كي أعمل في التاريخ وأن أبحث في الأحداث المتعاقبة، فأقترب من الحقيقة أكثر مما أتيح لي وأنا أكتب حكايات ناقصة ولكنها تتخيل الحقائق.

ولم تمض سوى أيام قليلة، كنت أسجل فيها بصوتي وصف أوابد أصبحت خلفية لأحداث يومية، اجتماعية وسياسية، وكأن مسرحاً أقيم في عقلي تُصور ديكوراته آثاراً قائمة يعكس منها الكثير مما يجري في حياتنا المعاصرة. وما أن انقضت فترة على انشغالي حتى وجدت أني لم أبتعد كثيراً عن (القص)، فكأنما غريزة الحكاية مازالت طاغية، فتركت التأريخ فجأة مدركاً أن التحقيق في الأحداث يحتاج الأمانة والصبر وكنت قد أفتقدتهما خلال سنوات الكتابة الفنية المختلفة الألوان.

وهكذا لازمني شعور بأن كل ما له علاقة بالتاريخ سيحرمني من عادة التأمل الذي أدمنته بتوقفي عن الكتابة، كأنما الأمور السلبية تساهم في خلق متعة الكسل، فعدت إلى العطالة الجميلة. مع أني سأعيد تقويم الموقف بعد فترة فأكتشف أن قراءة التاريخ، مهما كان لونها محلياً أو كونياً، تدفعك إلى إعادة النظر فيما نحن عليه، ثم أدرك أن تلك القراءة تمتص

وقت الراحة التي اعتقدت أنها قد حانت، فلقد ذهب العمر في العمل اليومي وأنا أبني عوالم وأحداثاً معظمها لن يتحقق أو أنه غير موجود أصلاً.

فجأة قررت أن أصبح فيلسوفاً، بعد أن اشتدت عليّ الوحدة في الدار الكبيرة تستقطب الزمن تشققاً في الجدران وأوراق شجر يابسة تغطي معظم بلاط الحوش، فكأنني في متاهة تشعل خيالات مجنونة. كانت الدار التي توارثتها عن جدي ومن قبله جدي الأكبر الذي ابتنى تلك الدار لتحيط بشجرة توت معمرة، والتي خيل لبانيها أنها لن تموت فهي رمز الديمومة. ومع أن أجيالاً انقضت، وها أنذا أداري شيخوختي، فإن الشجرة ظلت تنمو وتكبر وما زالت تثمر. وكان الجد القادم من الاستانة، قد وقع في غرام القلعة التي نمت حلب من حولها تزنرها في دوائر تنداح كدوائر في الماء أو أنها مركز قوقعة حلزون تنتفخ قشرته يوماً بعد يوم وسنة بعد سنة وحقبة بعد حقبة. وهكذا قرر أن يطلب الجوار منها، فشارك بشخصه في الإشراف على ارتفاعها عن فسحة من الأرض تشرف عليها مأذنة القلعة وسورها الذي تتساقط حجارته بينما تكتمل حجارة الدار المرصوصة كحب الرمان.

واشتهر الجد بتربية دودة القز، التي أصبحت هوايته، وكأنما عقد صداقة بين ديدانه وأوراق الشجر فسمي بالحريري. كان أول شخص في الحي ينادى بكنيته دون اسمه، قال (الحريري)، عاد (الحريري) من الديار المقدسة، اشترى (الحريري) سوقاً كاملاً في (المدينة) ليس فيها دكاناً للحرير. وقد تغير اسمه فجأة بعد مقتله في اعتداء من فلول رجال الانكشارية الذين انتشروا في البلاد يستمتعون بالإيذاء والعنف دون هدف. قيل إنهم ظنوا أن الدار التي ابتناها جدي تخفي في أقبيتها كنزاً جلبه تجار (طريق الحرير) وهم قادمون كالعادة من شرق العالم ليحطوا رحالهم في مركز هام كحلب. وقيل أن جماعة من أهل (يأجوج ومأجوج) قد تركوا كنزهم وديعة عند (الحريري) الذي اشتهر بالأمانة في كل البلاد. ولم يمض أيام على مواراته التراب في مقبرة (الصالحين)، حتى تعارف أهل السوق والمعارف والأصدقاء على اسم جديد، لتتفشى الشائعة بين الناس، بأنه (الشهيد) انتقاما من سمعة أولئك القتلة الذين فرختهم السلطنة في الأستانة. وكانت السرعة في استبدال الكنية من (الحريري) إلى (الشهيد) قد دفعتني بعد عشرات السنين إلى استقراء عقلية المدينة آنذاك وهي تدافع عن

وجودها بالتلاعب في اللغة كي تعبر عن سخطها الكامن على السفاحين الانكشارية، وكانت جريمتهم في قتل جدي واحدة من مئات الجرائم التي روّعت البلاد.

عندما ولدت لأبي، كان على ما يبدو حريصاً على ذكرى العائلة، وهكذا لم يجد اسماً لي سوى (شاهد)، إما لتوافقه الموسيقي مع الكنية التي باتت لاصقة بنا وهي (الشهيد)، أو لأنه أراد أن يزج بي في أحداث العصر لأكون شاهداً عليها. ثم لحق بي أخي التوأم بعد أقل من ساعة، والذي قيل انه لم يصرخ عالياً كما فعلت أنا لحظة قدومي إلى الحياة. وقد احتار والدي بعد ذلك في إطلاق اسم عليه، لكن هدوءه المثير ككائن يطل لأول مرة دفعه إلى أن يسميه بالهادي.

وقد ظلت العائلة لا تميز بين الطفلين، أنا شاهد الشهيد وتوأمي الذي لايختلف عني صار هادي الشهيد. ولم يفرق بيننا النمو خلال السنوات المتعاقبة، فكنت أحياناً أنادى بهادي فلا أجيب، كما كان ينادى عليه بشاهد فلا يعير الأمر انتباهاً. وظلت تلك العادة مستحكمة بنا طويلاً، وكأنني أصر على أن أظلّ شاهداً، بينما يتمسك أخي باسمه الهادي.

ويبدو أنه كان لاسمي الغريب دور في دعم شهرتي بالكتابة بعد ذلك، وكثيراً ما سمعتهم يقولون (الحكواتي الشاهد) في محاولة لجعل حكاية أكتبها جزءاً من الواقع، أو أنهم يقولون (الشاهد على كذا) وكأنهم يدعمون قولهم بنوع من التوثيق.

وقد أفادني الدخل المالي من تلك الدكاكين الكثيرة في سوق (المدينة) في تفرغي لأعمال القراءة والكتابة. وساهم ذلك التفرغ الكامل في العناية الزائدة بكل ما أكتب من حكايات ومقالات وقصص للتلفزيون الوافد حديثاً، مما حقق لي مكانة في قلوب الناس وهم يتوقون لتحقيق أحلام ضائعة أو مستحيلة.

وستهل علي أول مودة قاتلة عندما تواردت التهاني عليّ لبلوغي الستين، وكنت أظنهم سيتساءلون عن سبب توقفي المفاجىء عن المتابعة، كأنهم لم يدركوا جفاف بئري، فإذا هم يعلنون عن محبة لم أعرف مثلها في حياتي الخاصة.

كانت الكتابة هي مهنتي الوحيدة التي أعرفها استمرارا لوجودي، وقد أصبحت أشبه بالوارثين العاطلين عن العمل، أبحث كل يوم عن هدف في فكرة أحققها، فيقيم الهدف حتى

انتهائه، فإذا تحقق انتقلت إلى واحد آخر. وبات ذلك الواقع برنامجاً يومياً يمشي على إيقاع فلسفة شخصية ظننت أنها بدأت تكتمل، فقد أضيف بها شيئاً على ما كتبه الأقدمون والمحدثون، فنظرت ذات مرة إلى أوراق المسودات والأوراق التي لم تكتمل بسبب ما، فهجم عليّ العمر فتساءلت «وما الفائدة؟» فكأن إيقاع فلسفتي ابتدأ يفقد تأثيره، فتراجعت الرغبة لحظة فلحظة، وإذ بي أتوقف وأتجول في ساحة الحوش الكبيرة كسجين سمح له بالتنفس، فابتدأ الجمود.

وكان القط الغريب العجوز الذي كشفت محاولته الغادرة، يحاول اقتحام قفص الببغاء، الكائن الوحيد الذي بقي لي مقيماً يكلمني وأكلمه في الدار، فلاحقته لأنسى وأنا أجري خلفه من ركن لآخر كل ما يتعلق بإيقاع عملي المتوقف عن التقدم.

والتجأ القط إلى الزاوية القريبة من البئر، فرفعت العصا التي بقيت ذكرى حميمة من أبي وقد احتفظ بها لهز أغصان شجرة التوت فظلت البقع التي برقعت خشب العصا بأشكال تشبه الأفعى المصبرة، فإذا بالقط يقعي باستسلام وهو ينظر إلي بعتب دفعني إلى الوقوف جامداً. وكأني سمعت القط يقول

لي: «إذا كنت تريد أن تصبح فيلسوفاً حقاً فحاول أن تحاورني بدل أن تضربني»، وهتفت في سري أقول له «وهل أقف ساكناً بينما أنت تريد الاعتداء على أعز أصدقائي!».

وكأني سمعته يقول: «كنت جائعاً». فذهبت إلى المطبخ الذي حافظت على شخصيته المتوارثة قريبتي (علية) تطل علي عدة مرات في الأسبوع، فظل المطبخ مورداً لإطعام الجائعين، واستمرت نيرانه دليلاً على البقاء. أحضرت قطعة لحم تنفع أسنان القط التي طال استخدامها، فتلقاها بامتنان وأرسل مواء شكر، وتقدم بعد ذلك من قدمي وأقعى عندهما ككلب وفي. فسميته (الماكر) وإن كان (الحكيم) أجدر به. وصرت أعتني به ويستجيب لندائي له بالماكر وكأنه وجده ملائماً. بتنا عجوزين متلازمين يؤنسان وحدتهما، وهكذا ساعدتني صداقة القط والببغاء على الاستسلام لمصير هادىء. كنا نتناول الطعام كشريكين، واعتنت علية به كصديق عزيز على قلبي، فنمت المشاعر الودودة في الدار العتيقة، فبدا الاطمئنان يداخل روحي.

-٣-

ناديت أكثر من مرة على الماكر فلم أتلقَّ رداً. أين الماكر؟ هذا ما شغلني صباح ذلك اليوم، أن تفتقد روحاً تؤانسك وتستجيب لك، ففتشت عنه في أرجاء الحوش الذي ظهرت فيه آثار القط على الأوراق المتساقطة بالرغم من أنّ الخريف لم يأت بعد، وبالرغم من أن أوراق بعض الأشجار لا تتساقط، وهتفت باسمه وكأني ألاعبه، فلم أسمع رداً. ثم جاءني مواؤه الخشن دليلاً على وجوده في القبو الذي كنت أؤجل اقتحامه منذ أيام الطفولة لخوفي من مفاجأة تنتظرني هناك. كان القبو مهملاً، لا يدخله أحد إلاّ نادراً، فحزمت أمري في أن أعيد الماكر وأن أضع حداً لترددي في استجلاء وضع القبو.

كانت الدرجات الحجرية الخمس متآكلة دفعتني إلى الحذر الشديد في استخدامها، فأوصلتني الحيطة إلى الباب الضيق الذي يكاد تتسع فتحته لشخص منحني القامة، فحشرت نفسي داخل الضلفة التي دفعتها بحرص شديد، وأنا ماأزال أنادي على الماكر الذي قدّرت أنه تسلل من زجاج النافذة المكسور،

وكانت واحدة من أربع نوافذ تدخل الضوء إلى القبو. وبالرغم من العتمة المضاءة وضعت أقدامي بحرص على أرضه التي غطى بلاطها تراب متماسك جمعت ذراته البرودة التي تخيم على المكان. بحثت عن مفتاح الكهرباء، فأضيء القبو، فكانت فسحة تحددها قناطر طينية كحمام السوق تظهر المكان وكأنه مشروع قاعة أندلسية البناء غير منتهية. كنت قد دخلت القبو عدداً من المرات في أيام الطفولة، ولكنني دهشت لتلك النعومة التي أضفاها البناء على قبو لن يكون للسكن. أهو إعطاء المكان جمالاً يناسب الأشباح المرشحة للسكن؟ هكذا قلت لنفسي ساخراً بينما تعلقت عيناي برف خشبي يمتد على حائط جانبي يحمل بعض الأشياء من مصنف جلدي وبعض المزهريات أذكرها كانت تستخدم في بعض السهرات القديمة، وكان والدي يشتري (ألفية) ماء الزهر ليستهلكها في رش الأيدي ويضّمخ برائحتها الضيوف، ويعبر عن سروره بماء الزهر يسفحه بلا حساب على فريق المنشدين الذين يتجمعون في أرض الدار يرتفع صوت شيخهم بالدعاء الجميل وهو يتغنى باستغراق معدداً صفات النبي الكريم. وهكذا استعدت تلك الأيام المفرحة في حياة الأسرة.

وتناولت المصنف الجلدي الذي كـان ألبـومـاً يضم بين صفحاته صوراً مائية لأفراد العائلة. كنت طفلاً بين أعضائها، وكثيراً ما كان الهادي إلى جانبي ساهماً بعينيه وكأنه يحس بالغربة بين أهله. وأذكر أن ابني المهاجر قد حدثني مرة على الهاتف عن ذكريات العائلة، فعملت على استنساخ بعضها، ولكني أحجمت عن إرسالها لعدم ذكره شيئاً بعد ذلك أبداً، فحزّ في نفسي أنه ما عاد يظهر أي حَنين، فنفضت الغبار عن جلد الألبوم وقررت إعادته إلى المكتبة.

كانت الثريا النحاسية التي كان والدي قد نقلها من غرفة المسافرين إلى القبو بعد أن كبا لونها واخضرت أجزاء منها، فتدلت من السقف الواطىء المحدب يندمج لونها مع الحجارة الكلسية التي بدأت الرطوبة بتفتيت سطوحها، ولكن الكهرباء شعّت نوراً وأنا أختبر فعاليتها، فساهمت مع المصباح الوحيد في مزيد من النور كشف آثار الرطوبة في كل مكان.

ناديت على الماكر من جديد فحسبت مواؤه بعيداً وكأن القط الخبيث قد عاد إلى أرض الحوش، فبحثت عنه عبر النافذة، وكأن الدار قد امتلأت من جديد بالضيوف من أقارب وجيران. ما كان لفرح أن يقام في الحارة إلاّ وأستضيف الناس في تلك الفسحة، فقد كانت دار الحريري ومن بعده الشهيد

مـضـافـة للكل في أيام العـزاء أيضـاً، وتجـمع أهل الحي وهم يبحثون في أمور خطيرة أو مشتركة تمسهم أو أن لها علاقة بحال البلد. وكـان الليوان يستجيب للضوضاء فيجسم الأصوات يرددها إلى كل أنحاء الدار بتعاطف كبير.

وهأنذا أنسى أمر القط فيما أحدق معايناً الكرسيين المقابلين في طرف القبو. كانا قد صنعا من خشب الجوز المعتق فلعب النسيان دوره في تساقط الأصداف من الوشم الذي تغلغل في جميع أجزائهما، فبدا الكرسيان وكأنهما أصيبا بالجذام. وتذكرت أنني ساهمت أيضاً في طفولتي باقتلاع عدد من تلك الأصداف التي قيل إنها تستورد من بحر فلسطين، فما كنت أعرف شيئاً هاماً عن فلسطين سوى أنها بلد تنتج اللآلىء، وعندما غمرتها آلام الاعتداء في فجر أيام شبابي خطر لي أن أحتفظ بتلك اللآلىء انتساباً إليها وتمجيداً لعذابها الذي بدا لي بعد ذلك أنه لن يتوقف. كانت جدتي تنهاني عن سرقة أيّة صدفة، فأغافلها وأقتلع واحدة منها وكان الحصول على ذلك الصدف اللؤلؤي هو المتعة المثلى.

ومسحت عن كرسي طبقة الغبار لأجلس عليه متأملاً الزمن الذي مضى، والذي يبدو أنه لن يعود، فكان ظهري قد أعطي لممر سرداب خفي كنت قد اقتحمت جانباً منه في طفولتي مع

أخي الهادي. مضى هو بعيداً وتراجعت أنا، وعاد هو بعد قليل ليقول لي « يبدو أنه يؤدي إلى خارج الدار». لم أقاوم سحر الكرسي وهو يطير بي في أجواء عالم لا ينسى، كانت قوة الحاضر قد حاولت أن تمحوه، وجاءت لحظات القبو تجاهد في إنعاشه.

الكرسيان يتصدران دوماً الليوان الغربي، كانا لكبار الضيوف، وكنت قد سمعت أنهما كانا لأمير حلب منذ قرون، لكن عمتي الساخرة أبداً كانت تقول إن من يجلس على أي منهما سيموت حتماً. ولقد مات كل من جلس، لكنني لم أحس بخوف من هذه النبوءة في تلك اللحظات، بل أفلتُّ ضاحكاً من ذكاء عمتي، فمن الذي لن يموت!

بدون الغبار الذي كان يغطي كل شيء، بدا لي المشهد أليفاً وكأنه لم يهمل يوماً، وخيل إلي وأنا أجيل النظر في المكان أن أحداً يجلس قبالتي على الكرسي الآخر، كان يبتسم كواحد من الأقارب العطوفين، ولكن صمته جرّني إلى التساؤل «ما الذي يدفعك إلى مثل هذا السرور؟» فسمعته يقول «الأوهام وحدها تثير السخرية»، فعلمت أن الرقيب الخفي كان يرثي لحال مخيلتي الناشطة. فقمت أتجول في ساحة القبو لأشاهد قشوراً تقاوم السقوط تنتشر على الجدران التي طليت

بالزريقة الحلبية الناعمة دون السقف، وكأنها تشكلت لتوها، فعاينت جلد ساعدي وكفّي لأتبين بعض الجفاف المتشقق والكثير من الشيب، فأسرعت بخطواتي في القبو كأنما أحاول أن أثبت لنفسي حيوية لابد لها من استمراري.

وكان يقبع في زاوية بعيدة ذلك الكرسي العالي الذي صنعه النجار كي يتسع لطفلين، أنا والهادي، يكملان اجتماع العائلة على مائدة الطعام، استعدت ضوضاءها وقرقعة ضرب المعالق بالصحون، فأصبت بحنين كبير إلى الهادي، وتذكرت أمي تمسح آثار الطعام عن المنديلين اللذين لفّ بهما الجسدان الصغيران. أذكر اللمسات التي تداعبنا بها أصابع يدها، والتي كنا نحنّ اليها ونحن نغادر الدار إلى (الروضة) كطفلين جادين يصحبنا الوالد إلى أول الشارع بانتظار السيارة. كنت أداعب رأس ابني أيضاً قبل ذهابه إلى المدرسة، فهاجت في الروح ذكريات الطفولة. الآن لم يعد هناك أي أثر لتلك البراءة في جيلي الذي شاخ أو في جيل ابني الذي نضج. تخيلت حفيدي ينعم الآن بذلك الحنان فابتسمت.

في ندائي الجديد على الماكر، عاد إليّ صوتي ولم يصلني أي مواء، فاختلط علي الأمر لأفقد أي تخيل لمكانه، كررت النداء فلم ألق سوى الصمت وكأن القط جنّي شق الأرض

واختفى، أو أنه وجد ثغرة في الحائط دخل فيها ليتوغل بعيداً في ذلك السرداب. حاولت أن أتقصى أثراً له فوجدت البساط الصوفي الذي علّق منذ أيام الطفولة يعطي مهابة للصندوق الكبير أمامه. كان المشهد وكأنه ركن مهيب، وكنت قد عبثت بمحتويات الصندوق أيام الطفولة، فلم يكن فيه سوى عدد من المسابح الخشبية استخدمت أحياناً أيام الأذكار، كما كانت هناك (طبنجة) تلف الفضة المشغّلة التي كبا لونها قبضتها العريضة فلم أستطع حملها آنذاك بيدي الصغيرة وقلبت آملاً «قد تنفعني عندما أكبر»، وهأنذا أمسك بها الآن أعاينها وأتظاهر بالتصويب وابتسم فهي سلاح لم يعد صالحاً إلاّ للزينة وتمجيد الماضي.

بدأت التفتيش ونبش ما هو مستور أو مختبىء، عثرت في البداية على قطعة قماش ناعمة تلف ثلاثة خناجر من أنواع وأشكال متباينة، أمسكت بأحدها أتأمله وأقول لنفسي لو أنها لُمّعت لظهر النحاس المطعم بالفضة كحلية فريدة، ولكنت علقتها على الحائط في غرفتي، فتذكرت أن كل مساحة قد غطيت بشيء ما، ففكرت بالخارطة الملونة التي تمثل العالم المسطح، فكرت في لحظة أن أنتزعها من على الجدار لأعلق الخناجر مكانها، ثم تلبسني الذنب في أني أفقد حلم السفر،

«ما عاد هناك خطة أتابعها على الخارطة كي أصل إلى أي مكان أحدده. ويبدو أن ذلك الحلم هو الذي كان السبب في الاحتفاظ بخارطة العالم طوال كل تلك السنين. وكثيراً ما كنت أعاين نقطة بعيدة فأتخيل الذهاب إليها بحراً أو جواً، وأحضر كل المعلومات المتعلقة بها تتملكني إرادة ساخنة في أن يتحقق ذلك السفر، ثم أنشغل بكتابة جديدة فتذوي فكرة السفر. أعتقد أن اليوم قدجاء الآن لأعرف موقعي من تلك الأحلام.

ثم أدهش بالأحجبة الكثيرة التي جمعها صندوق صغير داخل الصندوق الكبير. قلبتها بين يدي لأذكر كل حجاب، من كان يضعه على رقبته ولماذا، فقد كان الخوف من الحسد والشرور ولسعات الحشرات ولدغ العقارب والأفاعي. تذكرت حجابي الملون يتدلى من خيط حريري، كان للهادي مثله، وقد كتبه شيخ متخصص في الحماية من أي ضرر، وقد رميت به إلى أمي في أول شبابي بعدما وقعت في حب الصبية ابنة تاجر الفستق الحلبي الذي كان قد دخل ضمن أهل الحارة متأخراً، فباتت كنيته (الغريب)، وقد ظلت ملازمة له حتى في خروجه إلى حيٍّ آخر كان ينمو بسرعة في منطقة جديدة غرب المدينة، لتصبح عمارته التي ابتناها في أرض كانت تزرع

بالشعير، علامة يهتدي بها أهل حارتنا إذا ما مروا بتلك الأرض التي كانت عارية فامتلأت بالعمارات العديدة التي تؤكد تحسن أحوال الناس ونمو أموالهم التجارية، وكذلك وقف غرباء عابرون أمام تلك العمارة بإعجاب.

كنت آنذاك في السادسة عشرة، وكان انقلاب عسكري قد حرّم على الناس الخروج إلى الشوارع والتجول فيها، فتقابلت مع ابنة الغريب التي كانت تماثل عمري أو أنها أصغر سناً ملأتها الأنوثة. كان لقاؤنا عند طرف الشارع الضيق المطل على الشارع العام وينفتح مباشرة على القلعة، التي كانت تعجّ ذات يوم بالجنود والمدافع ثم باتت مكاناً يلتقي فيه السواح من كل بلاد العالم. ردت عليّ تحية الصباح فتأملت ثوبها المزهر يضيق عند وسطها ويكاد يتمزق عند صدرها، فبدت بالرغم من استجابتها لتحيتي الخجولة نزقةً يستبد بها الضيق الذي عبرت عنه بكلمات قليلة «ألا ترى أننا نعيش في مقبرة»، فأثارتني لهجتها الثائرة وتمنيت أن تكون غير جادة، فارتباطي بدارنا وحارتنا يشعرني باستقرار لا أتمنى أي اهتزاز له. قلت «لابد أن داركم جميلة»، فقالت «ليس هناك من سجن جميل»، فضحكت قائلاً «وكأنك خبيرة بالسجون»، فهتفت «ألا تحس ذلك وأنت تعيش في مثل هذه الحارة».

تعلقت بها، وأنا أراها صبية صغيرة الحجم تخرج من الدار إلى المدرسة، تحاول أن تمشي ببطء حين تلمحني، فتظهر دلالاً تهتز له كتفاها وردفاها. قلت لها يوم اللقاء على طرف الشارع:

- ما عدت تذهبين إلى المدرسة منذ مدة!

- أهلي يريدون لي أن أتزوج.

هكذا قالت، فتلعثم الكلام في فمي فلم أستطع أن أعلّق بحرف، فقالت:

- وأنت ألا تريد أن تتزوج؟

فقلت بعد أن استعدت شيئاً من الشجاعة:

- مازلت طالباً، وسأصبح طبيباً كما يريد أهلي.

فهتفت معلقة:

- أوف طبيب!، أي بعد زمن طويل وتابعت وهي ترتد نحو الحارة:

- كل تلك السنين لكي تستطيع أن تتزوج!

فقلت أكمل:

- ولكني أحب أن أدرس الفلسفة أو علم النفس.

فهتفت واقفة والسخرية تنضح من كلماتها:

- الفلسفة! وهل يمكن لهذه الدراسة أن تكسبك مالاً؟

أجبت حائراً:

- لم أفكر في الأمر.

فنظرت إليّ بدلال ماكر وهي ترد عن كتفها الجديلة السوداء، ومضت عائدة إلى دارها تهتز أردافها الضامرة كصبي لعين.

-٤-

وظلّ حبها قائماً في الهواجس الليلية. أتقلب صاحياً على فراشي بينما الهادي مستغرق في نوم هادىء أحسده عليه. أتخيل خصرها الناحل وقد أطبقت عليه بذراعي بينما صدرها النافر يعلو ويهبط على صدري، ثم أحدق في الظلمة لاكتشف بؤس خيالاتي فأغفو من جديد لأستعيدها. لم يكن يشغلني سوى حيوية جسدها يلامس جسدي، وأبحث في ذاكرتي عن صبية تثير حيويتي المتدفقة فأستعرض سكان الدور المجاورة التي تجمع أبوابها حارتنا، فلا أجد سواها، فأشهق ثم أكتم آهاتي وأضمّ المخدة إليّ زمناً حتى يغالبني النوم.

ولم تطل أيام التقلب على فراش الرغبة المستحيلة، فقد سمعنا في ليلة الزغاريد تعلو في السماء، فاستغربنا أن يقام فرح مهما كان شأنه ولو كان عرساً، دون أن تكون لدارنا صلة به. ثم تبين أنّ ضجة الفرح تأتي من بيت (الغريب) الذي أهمل دعوة أحد منا، وسأعلم صباح اليوم التالي أن قران ابنة الغريب قد عقد في تلك الليلة التي سكنت ضجتها في صندوق رأسي

أياماً طويلة، فانهمكت في قراءة (رياض الصالحين) الذي اكتشفته في مكتبة الصالون الكبير، وداومت مدّة على قراءة صفحاته، فسكنت الهواجس التي أرقتني، وبردت نيراني شيئاً فشيئاً.

واستمرت مرحلة العزاء التي قدمتها لنفسي مع انهماكي في كتابة قصة حب قصير العمر. وعندما انتهيت من صفحاتها الخمسين استشعرت بنوع من السكينة وبقليل من الفراغ الذي أعقب انشغالي المحموم في تلك الكتابة التي ستكون الأولى لي. وهأنذا أقدر على تكوين حكاية بلغة بسيطة، بدت لي صادقة في كل حرف كتبته منها، فداخلني سرور أنني أستطيع أن أفعل شيئاً له قيمة فأتخلص من التآكل الذي لحق بروحي أيام الحب القصيرة المحمومة.

لكن أستاذ اللغة العربية في المدرسة صرح بعد قراءة بعض صفحات تلك الحكاية انني عقيم وأجهل كيف تكون الكتابة الفنية. أين البلاغة؟

أين الصور البديعية؟ أنت تكتب كما تتكلم والكتابة هي السمو. اذهب ياولدي واقرأ أمهات الكتب قبل أن تكتب شيئاً. عندك (أدب الكاتب) و(الأغاني) و(المستظرف)، هل

حفظت (لامية العرب)؟ هل تفهمت (الشنفرى)، وما عدد المرات التي قرأت فيها (البيان والتبيين) و(ألف ليلة وليلة) في نسختها المهذبة؟

كانت الوصايا كماء بارد صبّه الأستاذ على رأسي، وكأنه حقنني بمرض التخاذل، فقررت أن أعود إلى الدار أشاهد نيران احتراق الصفحات بيدي، لكنني أحجمت في اللحظة الأخيرة، وضممت عملي الأول إلى صدري، فكأنني أضم الصبية الحسناء إليه، وأرتعش. وكان أن غامرت بإرسال قصتي عن الحب إلى مجلة في دمشق، فقد تكون حكماً عادلاً، آنذاك سأتخلى عن المتابعة إذا ما جاءني رفضها. بعد أسابيع وأنا ألاحق الأعداد الدورية لها قرأت إعلاناً عن قصتي بنشرها مسلسلة في العدد القادم، فطرت فرحاً وأعلنت لنفسي أني سأصبح كاتباً.

كانت القصة المنشورة تضم خمس حكايات عن تطلعات متباينة لخمسة محبين، الأول أحب في فتاته جسدها الجميل الذي لايمكن أن يصيبه تحول كما يحدث للنساء عادة، فتظل أمثولة يتطلع إليها المحب كمعجزة بشرية لا يصيب جسدها شيء. وكان الثاني يحب في الصبية أمومة متوقعة تصور أنها يمكن أن تكون نموذجاً لكل نساء العالم. وكان الثالث يحبها

لقدرتها على رؤية ما وراء الأشياء وما تخفيه الأحداق فيقضي وقته في توسله للحكيمة الرائعة أن تكشف له عن المستقبل. وكان الرابع قد أعلن عن حبه الجارف للصبية وهي تتحمل الصعاب وتصبر على الشدائد فتزداد بمقاومتها المعجزة جمالاً على جمال. وأما الخامس فأحب الصبية لأنها الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يتفهم عواطفه وأفكاره وهواجسه وأحلامه وتقلبات نظرته للحياة. فكانت الحكايات الخمس هي السلسلة المتكاملة في تطلعاتي إلى المرأة التي أحلم بها، فنالت ثناء عدد من القراء، فاستعدت ثقتي بنفسي.

انشغلت بعد ذلك بكتابة الرسائل إلى ابنة الغريب، وقد ظلت بحوزتي، فالقسوة عليها كانت ظالمة، فالصبية لم تعد بشيء، وتبين لي أنها قد مضت في الطريق الذي يجب أن تسير عليه، فتحولت عشرات الرسائل تلك إلى مشاريع حكايات كانت لي الجرأة في إرسالها إلى المجلة ذاتها. كنت أحس برغبة تحدي أستاذي، وأتطلع إلى اكتساب مكانة بين رفاق المدرسة، بينما ابتسم الهادي وهو يطلّع عليها ويقول «هذا طريق جيد لك». قلّب الأستاذ الصفحات المنشورة بامتهان، ونظر إلي بقسوة لن أنساها، وتمتم قائلاً:

- إذا كنت تحسب أن هذه هي الكتابة، فأنت واهم.

واستيقظت من أحلام ذكرياتي القديمة، مناديًا على الماكر من جديد، فجاءني صوت الببغاء يردّد «الماكر ... الماكر» فكان إيقاع ندائه كما هو الحال دومًا وأنا أدخل الدار يرحب بي «شاهد ... شاهد». ولم يكن للفظ أثر فانشغلت بمراقبة البساط الصوفي الذي حمل الغبار فتحولت ألوانه، وباتت حمرته القانية كلون التراب الذي يكسو التلال الغربية على طريق السفر. جعلت أتفحص البساط عن قرب أحاول اكتشاف قيمته الأثرية، ولكن خبرتي الناقصة جعلتني أتمتم قائلاً «أتراني أميل إلى ربط أي شيء بالزمن الغابر الذي انقضى» ثم قلت لنفسي «يبدو أنني شخت حقاً، فالقديم الحقيقي بات أنا».

ثم اقتربت أكثر من البساط وبيدي الخيزرانة التي قيل أن جدي كان يهش بها على طيوره التي تهبط إليه من الأسطحة ورؤوس المداخن لتلتقط حبوب الذرة الصفراء، التي كان جدي يحتفظ بها للطيور أو لنفسه يتناولها مسلوقة على مدار السنة، لأنها هي التي ستقوي من عزيمته لكي يطير في السماء عندما يأذن وقت رحلته الأخيرة.

قررت أن أنفض الزمن عن البساط بالخيزرانة، منقضاً عليها بهدوء ورفق، فامتلأ صدري بالغبار وكذلك عشيت عيناي،

وانحشر في فتحتي الأنف، فكففت عن ضرب البساط وابتعدت أهش عني موجة الغبار التي هاجت بلمسات قليلة من الخيزرانة، وباتت أجواء القبو وكأنها تعيش لحظات انهدام كل شيء وأنا أسبح في خراب أشعرني بالتشاؤم.

تابعت ذراعي تهش على الغبار العالق بين ذرات الهواء الساكن فيتحرك في كل اتجاه، ولكني ما لبثت أن سمعت صوتًا أرعبني، فحدقت أتبين مصدر ذلك الصوت، فإذا بالبساط يسقط على الصندوق محدثاً جلبة زادت من هياج الغبار. نظرت بقلب واجف إلى المشهد الذي كان قريبًا مني، فالبساط قد تكوم على الصندوق وبات جانب منه على الأرض، وانكشفت أمامي خزانة في الحائط كان البساط على ما يبدو يحجبها. كان خشب الخزانة قد تشقق، وبات كمدخل ضيق لشيء مقدس خفي.

أي سرّ حاول الآباء من قبل أن يخفوه داخل تلك الخزانة عن أعين الغرباء؟، فانتظرت لحظات حتى انجلى المشهد وسقط الغبار أرضًا وسحبت بهدوء شديد طرفي الباب لينكشف خلفهما رفّان اثنان، فتأنيت متردداً في أن تمتد ذراعي إليها فتنقض عليها الأفعى التي أذكر أني هاجمتها وأنا طفلٌ، فذعرت واختفت في شق لتغيب عني ولكي لا تظهر بعد ذلك

أبداً. كانت أمي تقول «هي ساكنة الدار فلا تحاول إيذاءها يا ولدي بعد ذلك»، وأبنني الهادي لأن إيذاء الحيوان حرام. وأطفأت نوراً آخر فانكشفت لي أعماق الخزانة، فظهرت محتويات الرفين، فانتشلت كيساً من الساتان الأخضر بات الآن لونه كجلد حيوان عجوز، وبات ملمسه خشناً لتراكم الغبار عليه سنين طويلة، وقربته مني بحرص شديد وكأنه متفجرة ليس لها توقيت.

حللت الخيط المذهب الذي جمع أطراف الكيس، وقد أحالها إلى شيء أشبه بالزنبقة المستحية، فانكشف لي كتاب كان يملأ الكيس فأخرجته بصعوبة. الكتاب وكأن جلده من ثور، وكان سميكًا ظهرت على سطحه تشققات ملأها تراب دقيق. وكان الكتاب يضم بين غلافيه أوراقًا صقيلة وكأنها تستخدم للرسم أو أن شبيهًا لها غير موجود أو متداول الآن. قلبت الأوراق فتبين لي أن كتابة ما قد شغلت نصف صفحاتها تقريبًا. كان الخط جميلاً وكأنه لرسائل حب أو تودد لأمير أو حاكم لهيبة حروفها المرسومة وانحناءاتها الأشبه بالزخرفة اللينة. وكان الحبر الصيني الذي كتبت به تلك الصفحات، مازالت بلوراته تلمع مع أي نور يسقط عليها. وكان النصف الثاني من المجلد أوراقًا بيضًا، وكأن الذي ملأ الصفحات

المكتوبة بالقصبة أو بالريشة، لم يسعفه العمر لإكمالها، أو أنها تركت قصداً للقادم من بعده كي يكمل المشروع الذي بدأه.

ما أثارني هو آثار تلك المقاومة التي أبدتها المخطوطة، فكأن الأوراق قد جلّدت وجمعت لتوها، وأنها تصلح للألف سنة القادمة، ولكن الذي يثير حقاً هو ما جاء من كتابة في تلك المخطوطة.

-٥-

قرأت في الصفحة الثانية، وكان في الأولى دعاء حميم أن يمدّ الله بالقوة عباده كي يسبحوا بحمده في كلماتهم التي يدونونها، العنوان التالي:

«منامات الفقير إليه تعالى (عبد الله أسعد) الشهير بالحريري، الحلبي المولد، والمقيم في الأستانة دار السعادة، والذي أنعم الله عليه بالنسب الشريف الذي يعود إلى النبي عليه السلام، فلم يدخل الغرور قلبه فاستسلم لقدره وسبح باسمه وأقام داعياً ليل نهار يصلي ويذكر الله بقلب واجف مسلم».

ويبدو أنّ جدي الذي ابتدأ تسجيل أحلامه، كان آنذاك مايزال مقيماً في استنبول، قبل أن يعود إلى مدينته حلب بشكل نهائي، إذ أنّ تسجيل الأحلام قد توقف بعد ذلك. وكانت مناماته الأربعين قد امتدت عبر ستين صفحة من أوراق المخطوطة الكبيرة، وأخذت أرقاماً متسلسلة وكأنها مشروع

كتاب أو أنه كان يخشى ضياع واحد منها . وأدركت بتصفح أولي للأوراق أنها متقاربة التواريخ مما يشي بأنها كتبت في مدّة ليست طويلة . وكأن جدي مرّ في مرحلة واعية لأمور جرت في لاوعيه، وها هو يقرع جرس الإنذار .

افتتح جدي منامه الأول بمقدمة صغيرة، استعاذ فيها من الشيطان، ومن الأحلام التي إذا أسيء تفسيرها انقلبت على صاحبها، فالأفضل أن لا يطلع أحد من الجاهلين أو الحاقدين على أي منها . وأضاف أمنية خالصة في أن يكون المنام الذي يفتح الله به عليه فاتحة خير وبشيراً بأيام مشرقة له ولنسله من بعده .

وقد اختتم مقدمته بدعوة أبنائه إلى أن يتابعوا تسجيل مناماتهم، كما نصح لهم أن يعلموا أولادهم من بعدهم ذلك الحرص، فهي الوحيدة ستبقى كما تبقى موجودات خزانة أسرار شخصية أحكمت الحراسة عليها، وأي نسيان في حمايتها سيعرضها للضياع . ومهما كانت قيمة تلك الأسرار فإنها الوحيدة التي ستكشف لنا عن واقع ستنسينا الأيام كل شيء عنه .

وسأعرف بعد مدّة، وكنت أقرأ في أوراق مهملة تعاقبت عليها سنوات وهي قابعة في أحد أدراج مكتبي، إن إقامة جدي في استنبول، قد منحته الحق في الزواج، ولكني علمت أنها لم تمنحه العذر في تكرار ذلك الزواج أكثر من مرة، والذي كان على ما يبدو سريعًا وقصيراً في معظم الحالات، الاّ أنه لم يعط أي مؤشر على إهمال جدتي لأبي التي كانت ترعى الدار الحلبية باهتمام وإخلاص وحكمة، ولهذا كان في استقبالها له بعد عودته النهائية من الترحاب والغفران، ماخلف انطباعًا تغنت به الحارة كما ذاع في أرجاء المدينة فتوجهت النساء بالمباركة لموقف الجدة النبيل.

ولم أستطع، وأنا أستعرض المنامات، أن أفهم سرّ الاهتمام المعقلن بتسجيل تلك الرؤى الخيالية، ووقر في ظني أن حلمي الذي كنت ما أزال أعيش آثاره منذ أيام، كان جدي نفسه الذي يسكن ذاكرتي هو الذي أوصى به إليّ، أو أنه كتبه لي في لوح ما لبث أن اختفى من الدار. قلت أخاطب الببغاء وأنا جالس تحت شجرة التوت أحتضن مجلد المنامات:

ـ هل تأخرت في تنفيذ وصية لم أطلع عليها من قبل؟

كانت هناك إشارات إلى أحداث سياسية واجتماعية مرّت على جدي أو أنها كانت تمر على السلطنة آنذاك، وقد تكون

هي المحرض الذي هيج عقله الباطن، ولكنني لم أستطع تحديد السبب المباشر في كتابة تلك المنامات العجيبة، إلى أن عثرت على تأكيد كتبه جدي بقلم الرصاص على قفا أحد المنامات كان كما يلي:

«إلى بني، ومن بعده أحفادي وكذلك أبنائهم، أذكركم دوماً بكتابة مناماتكم كما فعلت أنا. ولقد تركت لكم بياض الأوراق الباقية كي تتابعوا بحفظ ذاكرتكم على مر السنين وكونوا صادقين أمينين على كلّ شيء، ولا تأجلوا منام ليلة إلى يوم آخر، فالنسيان آفة أصابت الأمة، وقد يؤدي بها إلى التهلكة، كما حدث لأقوام كثيرة من قبل».

وأصابني نوع من الرعب المجهول، وأنا أعاود قراءة المنام الأخير يتحدث فيه جدي عن القتل البشع الذي تقوم به فلول الانكشارية المشردة في أنحاء البلاد. كان الجيش الذي أحدثته المملكة العثمانية قد حُلّ، لكن بقاياه عاثت في البلاد فساداً وخلفت آثاراً لايمكن لشعوب المملكة التي استقل معظمها أن تنساه. تذكرت ما قيل لي في طفولتي أن والد جدي هو الذي قضى بسيوفهم المعقوفة، فكان واحداً من كثيرين لا حصر لهم.

كانت قد ترددت شائعة آنذاك، أن هذا هو مصير من يمشي في ركاب أفكار (مدحت باشا) الذي حاول حين كان الصدر الأعظم أن يصلح من أمر المملكة، إذ لم يكن مسموحاً لأحد أن يتشبه بالدول الأوربية الكافرة، وكان مدحت باشا يبدي اعجاباً بتلك الدول.

كتب في منامه الأخير:

رأيتني أصلي على بلاط طاهر انتشرت فيه حفر صغيرة، كأن طيراً متوحشاً نقر البلاط بقسوة فخلف تلك الحفر كي يتجمع فيها ماء المطر عيوناً كعيون البلابل. وانشغلت عن ذكر الله بمعاينة الثقوب أحصيها فكانت منتشرة على اتساع الساحة الأشبه بصحن جامع مهمل فارتعشت حزناً. كنت عارياً من وسطي إلى رقبتي كأني أُحرم بجلدي استعداداً لأداء فريضة الحج، وكان رأسي قد حشر في علبة شفافة ربما هي صندوق زجاجي فإذا ما انحنيت للسجود ارتطمت العلبة بالبلاط فأحدثت صوتاً تردد في الفضاء كإنذار له طنين، فاختلط ذكر الله بالفرقعة المجسمة فاستغفره فيزداد الطنين اتساعاً، أقاوم وأجاهد في رفع رأسي لمتابعة فرض الصلاة التي هُمس في أذني أنها الأخيرة، فلم يمنعني الذعر من الاستمرار في التلاوة المسموعة، وكنت كلما اشتد الذعر عليّ أرفع صوتي بالآيات

أحاول أن أدخل طمأنينة ما إلى قلبي المفزوع إلى أن أحسست بالأقدام الثقيلة تدب على البلاط مقتربة مني . وكنت كلما أطلت في التلاوة كانت أعدادها تتكاثر إلى أن انجلى المشهد لبصيرتي فرأيتهم يزحفون نحوي كالنمل . ولاحت في الفضاء ذوائب سيوف خرجت من جعابها الجلدية تبشر بالذبح، فأسلمت رأسي للركوع فارتطم بالأرض دون طنين . سمعت رطانة عثمانية لم أفهم لها معنى بالرغم من إجادتي اللغة التركية كما العربية التي أصلي بها، وبت في لحظات خاطفة مركزاً لدائرة تضيق بالأقدام والسيوف، ورأيتني أقاوم قرع الأسلحة على الرأس المحمي بالعلبة التي جعلت تفقد شفافيتها وكأن الظلام يحل عليها فانتشر سواد ظالم، ورأيتني لا أملك سوى التسليم بالقضاء، ورأيت عيني تنطق بخوف عظيم فتنير فضاء العلبة بالوميض، إلى أن تدحرجت رأسي ككرة مدماة فامتلأت فجوات البلاط الصغيرة بالدماء الحمر طاردة ماء المطر النقي، ثم تحول المشهد إلى بقع سود كما الجدري يملأ الساحة التي كانت مهجورة فاكتظت بالجنود ، وبات الرأس كرة تنتقل من قدم لأخرى، ترافق تحركاتها العشوائية ضحكات وقهقهات تتعالى في الفضاء المقفل بقبة ليست كالسماء كأصوات في سوق يلعب فيه أطفال شرسون

ـحرة لزجة. ثم ظهرت قطة مرقطة كنمر صغير مستشرس، من خلف برميل نبت في الساحة كصخرة شيطانية، وجعلت بهتف بمواء فصيح:

ـ قطعوا الكافر اربًا اربًا.

استيقظت من نومي ألهث وكأن النهاية قد حمّت، فتحسست رأسي الذي كان ما يزال في مكانه، وتلمست جسدي أتأكد من سلامة أجزائه وأعضائه، وقلت لنفسي وكأنني أدرك أن ما حدث لي إنما هو مجرد وهم «ما قول ابن سيرين فيما رأيته في المنام، وما تفسيره لأولئك الجنود القتلة، ثم ما قوله في مواء القط الفصيح؟» ولم أملك سوى القراءة في آيات الله تحصنني من أي شر قادم.

كنت أسمع أقاويل كثيرة أيام طفولتي تشير إلى أشرار تقصدوا إيذاء جدي، وفهمت الآن لم كان والدي يحاول في كل تصرف من حياته أن يبعد عن أسرته أية أفكار اجتماعية لها علاقة بالدولة مهما كان الأمر أو الشخص الذي يمثلها. وكان يُردد دوماً أن يبتعد عن أي احتكاك بالحكومة أو بالسياسة فنحن عائلة مستورة ويكفينا ما نلناه في تاريخنا من أذى، كان يدعو الجميع إلى الابتعاد عن أية خصومة أو مشاكل أو إبداء رأي فطريقنا دوماً هو قرب الحائط نطلب السترة.

ويبدو أن اهتمام والدي بالعقارات والتجارة، هو الذي ضمن لنا من بعده ثروة كانت كافية لنحس بالأمان الدائم، وقد سمحت له بإرسال الهادي إلى أوربا كي يحقق حلم الأسرة في أن يكون لها طبيب، فغاب أخي في باريس سنوات كانت تتعاقب علينا بلا حساب، فمر الزمن بقسوة ليرحل الأب ومن بعده أمي، ولأغدو مسؤولاً عن عائلتي الجديدة والأملاك التي أدرتها فاشتبكت خبراتي المالية بهوايتي التي باتت احترافاً يسيطر على كل اهتماماتي.

أذكر أن الهادي عاد بعد مدة من غيابه الطويل يختفي وراء كلامه القليل ولحيته الكثة، وما زلت أتذكر نظراته وهو يتفحصني ويتطلع إلى زوجتي بعمق، وكأن تفرع العائلة بعد ضمورها إلى أغصان جديدة قد أثار دهشته، وما لبث أن اختفى بعد أيام، لأعلم مصادفة يخبرني أحدهم أنه شاهدني ملتحياً في بقعة نائية، فعلمت أن الهادي يعتكف لا يفعل شيئاً سوى القراءة والتعبد.

كنت قد قلت لأخي التوأم وأنا أعدد له مفردات حصته من أملاك والدنا الراحل حزيناً على فراقه، إن نصيبك بين أيد أمينة، وتستطيع أن تعيش معنا فهناك ما يكفيك لتكون بين أهلك وتفعل ما تريد، فأعلن عن تنازله عن أي حق، فحقه في

الحياة يعوضه عن أي شيء. وما زلت أذكره يقول لي «احذر يا أخي أن تستسلم للهناءة التي أنت فيها» وأعدت على مسامعه رجائي في أن يبقى معنا، فالعائلة صغيرة وستقوى به، فاكتفى بابتسامة راضية. علمت حقاً أنه يطلب الوحدة التي اعتادها، لكنني لم أنقطع عن التفكير فيه، فكان حضوره في مخيلتي يثير شوقاً إليه لم يتوقف.

كان في شبابنا الأول مشاكساً بصمته المتأمل، وكنت مسالماً لكني لم أعرف الهدوء أو أن أكف عن التحرك في كل اتجاه. ذهب إلى أوربا للدراسة وكنت أحلم بها، ودرست في جامعة دمشق أذهب إليها أيام الامتحان، فكنت ضمانة في حضوري تعوض غياب أخي. كانت أمي تحاول أن تستبقيني أطول مدة في الدار تحس بأنفاسي تحيط بها، كما كان والدي يصر على الأنس بوجودي معه. وهو الذي أسرع في تزويجي مبكراً كي أنجب الكثير من الأحفاد فأعوض له عن عقمه بعد التوأم بسبب حادثة مرعبة مرت عليه في عمله، إذ داهم السوق ثلّة من جنود الاحتلال الفرنسي السمر يبحثون عن رجال ابراهيم هنانو الذين أتعبوا فرنسا مع جماعات ثائرة أخرى، ظلّ والدي بعيداً عن الاحتكاك بها، ليكتفي بتقديم الإعانة سراً.

مبطن بقماش حريري لامع هو الوحيد الذي تجسد لي بوضوح وكأنه من مخلفات ملك عظيم، وأحسست به يدعوني إليه فتقدمت بحرص فملأت فراغه بجسدي، ورحت أتأمل السجادة الحمراء وهي تنسدل من السقف تحجب عني ما يمكن أن يكون خلفها. كانت صافية وكأن الدم يتوزع عليها بفرشاة فنان يعطي للصفاء معنى التوقد. وسمح لي استغراقي بتأملها سماع همس يخرج عنها، وإذا به يتحول إلى ضجيج ساحر، ثم تتوالى ضحكات مكتومة تتحول إلى نوع من الضجة المنتظمة تستفزني. بعد قليل تكشف اللون الأحمر عن أشكال بدأت في الظهور من سطح السجادة وكأن ولادة متوقعة لزخارف مدهشة ستظهر لي في كل ركن منها وكل بقعة تتشابك في تخلق ساحر فتتحول الزخارف إلى شيء أشبه بأجساد إنسانية عارية تتداخل أعضاؤها بعضها ببعض وكأن صانعها مازال يعمل من خلفها في صناعة نسيج بشر يتعانقون بشبق الخائف. ما كان للمشهد أن يدل على امرأة أو رجل، كان التداخل عناقًا يقوده تعلق خائف بنصفه الآخر، أغمضت ثم ما لبثت أن حدقت فظل المشهد كما هو.

ملأت كأساً رقيقة بالسائل من دورق يشف عن لون أنقى من الماء، ما إن تذوقت شفّة منه حتى انطلقت من جوفي آهة

لينة فقد كانت متعة الشراب تسحب من الأعماق نشوة لم أعرف مثلها من قبل، إذ يتدفق اللهب من فمي حتى أفرغ الكأس وأعاود ملأه بالشراب من جديد. كنت أريد أن أصعّد من النشوة التي انتابتني، وكأنني أريد أن أغرق في سكر لا أصحو منه، فنزلت الدرج الحلزوني دون أن أستند إلى الحائط الحجري بيدي، كنت متمالكاً نفسي وأنا في ذروة الصحو الذي غرقت فيه. وكأنني كنت أنظر عبر ظلمة شفيفة، كعقيق يتفجر دماً مباركاً، أو أنه هلام يستعيد ذراته ليتشكل امرأة انتصبت أمامي كحقيقة تدلني على يقظة وانتباه يدلني على نفسي. كانت تجتذبني إليها فتقدمت. حاولت أن أتفحصها فإذا الغلالة الوردية التي انسدلت من كتفيها إلى قدميها تشف عن عريٍ يتفتح لهفة واعية، وإذا بالعري يستدير كمالاً حول نفسه ليشرق ولهاً يستبد بي. وتحولت كافة أعضائي وحواسي إلى رؤية تفتش في كل زواياها وأبعادها، عنق مبسوط تدرج بكرم إلى ثديين يكادان يجرحان الغلالة، إلى ساحة جعلت بطنها تبدو منخفضة وهي تقبض على سرّة غائرة كعين سحرية تومض بالسحر الجاذب، إلى ساقين متسامقتين كشجرتي حور اكتمل خشبها وهما تمتدان بين أرض خصبة وبين كوة في السماء الموعودة. نظرت إلى المرأة

الجو أحاول أن أمسك بها فإذا هي تفلت مني وهي تنتقل من ركن إلى ركن. كنت الوحيد بين الرجال الذي يتقافز كالممسوس في الهواء ثم أهوي من جديد. كانت المطاردة يائسة ولكنها طويلة تستنفد طاقتي لحظة فلحظة. بدوت كمجنون يناضل في فراغ للحصول على ما يريد، فأصرخ ملتاعاً وأتخبط في بحر المستحيل، فإذا بالجماعة تبتعد، وتتداعى الجدران وتنكشف برية عذراء من حولنا، ويطلّ الخواء عليّ، ويتحول الصمت إلى فحيح، فتتناثرت أجزائي على بساط الأعشاب. كانت الخيبة غيوماً تجمعت في سماء البرية لتنزل مطراً تمازج فيه التراب ليغطي كل شيء.

- ٧ -

كان الحلـم الذي هبط عليه في الليلة الماضية، قد دفع به إلى يقظة قـاسيـة استبدت به مع بدايات الفجر الجديد، فقام عن سريره تلاحقه سقسقة العصافير التي ابتدأت يومها، فاستشعر نوعاً من الطمأنينة التي أكدت له أن الأمر لم يكن سوى حلم طويل، ولكنه حلم متكامل، فبحث عن وجه المرأة يريد أن يتعرف إليها، فإذا بالصور تنثال عليه فتختلط فيها وجوه نساء كثيرات، ممثلات سينما، امرأة قابلها مصادفة في الطريق، بطلات قصص كتبها هو أو قرأ عنها لآخرين، تيقظت ذاكرته فجأة، فتذكر ليلى.

وقام إلى الحوش يعبره إلى المطبخ كي يعد القهوة التي لم يكن بحاجة لسواها ذلك الصباح، ثم يخلو إلى نفسه قبل حضور (علية) التي لم تتركه وترعاه كأخت وتعينه على المتاعب. وعندما استقر على الكرسي في مكتبه، حاو ل أن يستعيد الحلم لحظة فلحظة، وكانت لذة التخيل تعيد إليه أيام الشباب، وكأن امرأة ساحرة قد هتفت له تطلب وصاله.

وكان مدير المتحف يتيه فخراً وهو يتجول بين الضيوف، وقالت ليلى تحيي بوداعة «أنا ليلى» فقال وأنا شاهد.

مشيا خطوات سوياً حول التمثال الذي ارتفع عن قاعدته بقامة تماثل قامة ليلى. قالت فجأة «ماذا أعجبك في التمثال؟» وكانت كمن يدخل في منافسة مع جمال ذلك التمثال الذي تمازجت فيه فطرية آسرة بإتقان غريزي لجعل الجمال يتفجر من طين. كان يطيل النظر إليها دون التمثال، وكانت شمس الأصيل تسقط عليهما من النوافذ العالية ويتسرب الضوء الكاشف من الواجهات الزجاجية المطلة على الحديقة الخلفية للمتحف، فتزداد ابتسامة ربة الينبوع غرابة، إعجاباً بنفسها أو شماتة بالأخريات، وتجتذب ابتسامة ليلى أفكار الجميع وكأنهم يتابعون حركاتها وسكناتها ويرصدون موقفها من الشاهد.

كان الربيع في أواخره، وكانت ليلى في بدايته، فما عاد يتخيل غيابها عنه، فتطابقت سرية الصبية مع غموض الربة التي حملت بين كفيها الجرة تتدفق منها المياه وهي تتفتق عن فقاقيع تملأ المكان بزبدٍ سماوي يلف أجساد الناس الحائرة في حركتها في الصالة الكبرى، ثم يغرقها، ثم ينجيها، فارتعش جسد شاهد وهو يدرك أنه ابتلّ ببلاء لا ينجيه منه سوى الهرب، فلم يفعل بل ظلت عيناه تلتصقان بالصبية عقب كل

نظرة خاطفة أو متفحصة من التمثال. كان ينتظر منها إشارة ما، ولكنها اعتذرت فجأة لتمضي إلى كهل استقبلها بحنان أب ومشى بها إلى حلقة من الرجال عرف شاهد فيهم صحافياً مخضرماً يقف إلى جانب فنان شاب اشتهر بنبوغه المبكر، وعن يساره مسؤول في إدارة المحافظة، فلبث شاهد عند التمثال جامداً مثله.

وسيقوده بحثه إلى معرفة الكهل الذي كان أباً لأربعة أبناء أكبرهم ليلى التي انتسبت إلى الجامعة تدرس الحقوق. وكان الوالد شرطياً يعمل في الأمن الجنائي وهو من عتاة العاملين فيه وقد اشتهر بالقسوة في ملاحقة المجرمين والحصول على اعترافاتهم بطرق شيطانية كانت قد انتسبت إليه وباتت موسومة باسمه، بينما ظهر وديعاً في أكثر من مناسبة، وبخاصة عندما يكون مع ابنته ليلى كحارس يلازمها في حضور المعارض الفنية والمحاضرات والعروض المسرحية. ويبدو أنه تخلى عن مرافقتها تدريجياً ليدفع بابنه الفتى ليكون حارساً لها بعد أن تزايد الاهتمام من كل الرجال. كان شاهد من جملة من كان يتتبع أخبارها وحضورها. قابلها مرات قليلات لم يكن فيها محادثة متبادلة في صمتها الموحي كالأولى.

ينظر شاهد إلى نفسه، ليجد أن الأيام تمر سريعاً، فهو الشاهد على مدينة تتقلب فيها الأحوال دون أن يفعل شيئاً، فالسيّىء يصبح مع توالي الزمن مقبولاً، والسارق مسؤولاً عن أمور هامة، ويتحول الجاهل إلى أستاذ في الجامعة، كما يلبس العالم رداء المعرفة ويرتدي الصفيق جبة الواعظ، والثرثار يُمسي رجل دين يتلاعب بأتباعه المطيعين، ويمضي الكسول الطامع بالمال في طريقة ليكون حرفياً يشوه معنى الإتقان في صناعة أي شيء، فالصابون الغار يفقد رائحته والخبز نكهته ويتحول العسل إلى سكر معقود والسمن البلدي يضيع منه نقاؤه مغشوشاً بالسمن النباتي، ويحلّ البلاستيك محل الصدّف الذي طالما زين الخشب فيما يفقد الأخير أصله النبيل فيحلّ (الحور) الهش محل (السنديان) الصلب. ويصبح الكذب شائعاً بينما الصدق يثير النفور، وتكون السرقة قانوناً للشطارة، الضجيج يتحول إلى موسيقى عذبة، ويفقد أذان الفجر سحره في الجوامع فيبدو المؤذن كالجلاد في صوته المتمايل على عذوبة السَّحر يوقظ الناس كُرهاً ويغدو نقمة للاستيقاظ، ويتزايد عدد الغشاشين فتكتظ المحاكم بجثث القوانين وهي تموت دون رصاصة رحمة، ويتسلق أطباء على أوجاع المرضى والمساكين نحو قمة الثراء، وقد تعوّد الناس

الالتحاق بالمسيرات العامة تردد الشعارات دون أن تعي معنى لها أو أنها تدافع عنها، وهكذا اختلط لحم الحمير بلحوم الغنم، ودارت سيارات فارهة في الشوارع يقودها جنون التفاخر أو أن الصبيان الحمقى يتفاخرون بانتمائهم إلى آباء أقوياء، ويتبرع رجال بمهمة كبيرة يكتبون التقارير إلى أجهزة الأمن دون أجر، وتتلوث الخضار بمياه المجارير فتتحول المشافي إلى مشاريع اقتصادية تنتج الأموال والأموات وأصحاب العاهات، وهكذا باتت اللوحات الفنية مساحات من غباء لامعنى له أو أنها تمجيد لقيم زائلة، وطأطأ الشِّعر المقفى رأسه للمناسبات والمدائح وإيقاظ سير الظلم والأموات، وزُوِّرت الاحصاءات الرسمية كي تغطي عجز المسؤولين والإدارات، وارتفعت الأعلام الملونة على مدار السنة فغطاها التراب ومزقتها الرياح ففقدت كبرياءها وزهوّها الذي هزّ الضمائر من قبل، وضاقت الشوارع بأنفاس المقهورين، وهبط الدخان المتفحم على قمم الأشجار الخضر، وصار الزحام العشوائي دليل الحياة، وضاق الليل الحلبي بفسحته المنعشة وقد اتسع صدره يوماً للمواويل والقدود والأذكار، وأحس شاهد الشهيد باليأس فازداد انزواؤه في ركن مازال يضيق، وها هو يعيش منذ زمن يفكر في أن الباقي له من الحياة إنما هو مشروع انتظار

غير مثمر، فلا يفرج كربه سوى التأمل الصامت الذي لا جدوى منه.

ويبدو أن شعور المتقاعد قد تلبسه كعفريت بالرغم من أنه لم يلتحق بأية وظيفة حكومية أو خاصة، وكان توقفه عن كتابة أي شيء لمدّة يخشى أن تطول، جعله يفكر في المستقبل بأسلوب جديد، بحثاً عن كوة في القبة المغلقة التي أطاحت به كقشرة بيضة صنعت من الفولاذ أو الأسمنت المسلح يطيح بالرؤية. التأمل الصامت كان وسيلة للبحث عن كوة يطلّ بها على مستقبل أفضل.

-٨-

من جديد يصبح دفتر الأحلام مرجعاً لاسترجاع الماضي. منامات الجد يعيد قراءتها ليكتشف أنها تستعصي عليه في اللحظة التي ظنّ فيها أن التكرار سيجعلها واضحة وبسيطة. شيء بات له معروفاً هو أن كاتب المنامات لم يقم بأي تعليق أو ملاحظة تساعد على تفسير المنام الذي بدا أنه كان يسجل في الكراس بأمانة وللتو بعد أن يستيقظ من حلم. وبالرغم من لاعقلانية معظم المنامات، وهذا أمر غير مستغرب في الأحلام، فإن شاهد الشهيد كان يكتشف أن جدّه قد سجل صوراً مفككة الأجزاء لترسم بدورها صورة شبه كاملة لمرحلة عجيبة من الحياة في المملكة العثمانية وقد سادها الخوف والتمزق المذعور. كانت مرحلة لا يمكن أنِ يقال عنها سوى أنها رمز العنف. وأحصى عدد المرات التي قامت بها الحيوانات المفترسة بتمزيق الرجال والنساء أيضاً أو إيذائهم بوحشية تفوق الخيال، والتي لم تقلّ عداوة الانكشارية للبشر عن فتكهم، وتجسدت معظم الوحشية في الكلاب التي يظهر خوف الجد

منها وكأنه كان يعيش في واقع كلبية سائدة، فهل كانت للمواقف السياسية من العثمانية إيقاعات خشي الجد من إظهارها فطغت على سطح اللاشعور . كأن السلطة آنذاك لا تعرف من الحكم سوى السيوف والخناجر والطبنجات والنبابيت تحشّ الناس من أمامها لتجعل الأرض يباباً. هل كان الجد مصاباً بمرض الخوف، أم أن ذلك كان هو الواقع المأساوي، وهل ابتدأ العنف الدامي في أيام تلك السلطة، أم أنها كانت امتداداً لعصور إنسانية دمغها الدم والعنف؟ وهل كانت معرفته أن الحياة لحقيقة تظهر في الكتب والتصانيف التاريخية، أم أنّ وثائقه اللاشعورية كانت كافية لاستجلاء الحقائق؟

أعاد قراءة منامه السابع القصير:

قال لي وأنياب تلمع من خلال لعابه:

- أنت أيها الكافر الجاحد النعمة، قل لنا ولا تخف شيئاً.

ووجدت نفسي أقول له متوسلاً:

- يا مولانا إنما أنا مؤمن، وأسبح الله في كل لحظة، ولم أكفر به من قبل ولن أكفر به من بعد. فجاءني صوت أتباعه من خلفه وكأنهم سد:

- الكافر ... الكافر ...

ولوّح الاتباع بأذنابهم الطويلة، وكان العواء مازال يتردد:

- الموت للكافر ... الموت للكافر.

وصاح المحقق الذي ظهر نصفه الأسفل يكسوه الشعر الخشن كتيس متذئب:

- ألا تريد الاعتراف؟

واستوت مخالب قدمي المحقق أمام وجهي المذعور، وهو يقول:

- إذن فوقع على اعترافٍ بأنك تؤمن بالله وبالسلطان الأعظم.

فهتفت مسلماً:

- أوقع، وأبصم بالعشرة.

وخرج صراخ جماعي يقوده المحقق:

- كيف توقع وأنت لا تعرف القراءة والكتابة!

فتوسلت قائلاً:

- لقد منّ الله بنعمة القراءة والكتابة.

فأنبني صوت المحقق يقول :

- ولكن الله لم يمنّ عليك بنعمة الإيمان .

وأكملت الجوقة معه صارخة :

- ولم تشملك رحمة السلطان .

فتوجهت إلى صنبور أتوضأ كي يأتي اعترافي مصدقاً، لكن الماء كان قانياً فسال على الأرض دماً هادراً جرف قدميّ بسرعة مذهلة، فاندفعت مسرعاً وراءهما لا أقوى على اللحاق بهما .

وسيتوقف عن القراءة بانتهاء المنام، وعقله يعمل مفكراً بما وصل إليه هو نفسه من عجز عن فهم ما يجري، وكأن التراث الملعون الذي خلفه الجد قد بات له وحده يؤرقه ويفتح جراحاً كانت مغلقة، لكن ذلك التراث سيعيد قطاره من جديد إلى السكة، فجعل يفكر إن كانت الكتابة التي انقطع عنها قد تصحح مسيرته بعد أن قضى السنوات الأخيرة قبل الجفاف في ممارسة اللعبة الشائعة . أن يكتب للتسلية كما هو مطلوب، فلاحقت برامجه في الإذاعة أو في التلفزيون شهرة شعبية غرق في متعتها، ثم توقف فجأة .

كل ما يذكره أنه استيقظ صباح يوم ترسم الغيوم فيه على صفحة السماء ظلالاً كان يهواها دوماً وينتظر حدوثها، فأيقظه

صراخ زوجته وهي تشكو من أوراق الشجر وبذور النباتات المتطايرة تكسو الأرض فتتكاثر العناكب وهي تبني أعشاشها في الزوايا وفي الكومات المهملة من الأوراق الجافة. وفي ذلك الصباح أعلنت عن قرارها القاطع في السفر إلى ولدها البعيد، كما فقد الشاهد فجأة أية رغبة في كتابة حرف بما فيه رسالة يرد فيها على متسائل أو قارىء يتابع كتابته.

استمر الكسل والتأمل، تتداخل بينهما قراءة كتب لم ينقطع عنها، وانتظمت زيارته اليومية لمقهى القلعة يأخذ أنفاساً من النارجيلة ليكف عن التدخين بعد قليل، وليتابع أحياناً الثرثرة مع بعض الصحاب والغرباء الذي يجيئون من بلاد بعيدة تفتنهم آثار المدينة وشموخ القلعة، فيلاحقونها بالتصوير. كانت أحاديثه مع الأوروبيين واليابانيين والأمريكيين وغيرهم، قد حفزته لمتابعة أحداث بلادهم وجغرافيتها، فاهتم بثقافاتهم المتباينة وملاحظاتهم الغنية عن مشاهداتهم الواسعة. وأثار انتباهه أنه مايزال يجهل الكثير عن مدينته وبلاده، فانكب على قراءة الكتب والأبحاث التي كتبت عنها، فازدادت غربته مع ازدياد معرفته.

وهكذا كانت عطالته عن الكتابة دافعاً لتعلم أشياء كثيرة، لام نفسه لأنه لم يلتفت إليها من قبل، ومضت أيام الشباب

كومضة وكأن بطاريته أشرفت على النهاية دون شحن مستمر. وأثارته عشرات الديانات التي ينتمي إليها كثير من الأقوام والشعوب، فعرف شيئاً عن الكونفوشيوسية واطلع على البوذية، كما عاد إلى ديانات ميتة كالزرادشتية والمانوية يقرأ عنها، واستهوته طرق غريبة في الاعتقاد لفرق تعد بالعشرات في القارة الهندية، كذلك تلك التحولات في عقائد القارة الأميركية التي كانت تسجل تقدماً في العلوم والتكنولوجيا، وكأن تقدم الحداثة يتماشى مع نشوء مذاهب جديدة تظهر بين مرحلة وأخرى. كاد أن يغرق نفسه في الشعاب المتفرعة لأفكار فلسفية كالأفلاطونية القديمة وبعض المذاهب الصوفية الإسلامية والمسيحية، لولا إن صورة الهادي كانت تعاوده أحياناً فيخاف أن يضيع في التأمل الصافي فيقاومه بالعودة إلى الحياة من حوله يتعلق بها.

قال لنفسه «يكفي واحد في العائلة»، إلاّ أنه لم يتوقف عن حملة الاستكشاف التي كانت تتشعب فيجد نفسه أحياناً ويضيع أحياناً، فكانت المعرفة تتسع دوائر تتسلل إليها دوائر من الحيرة، فظلت الشكوك قائمة في أعماقه، تلعب دوراً تتزايد أهميته وهو يتخبط في بحر المعرفة.

وعاد الماكر إلى حضنه. كان القط يبدو متشوقاً إلى حنان، فمسح عليه شاهد بكفه كعادته وهو يعود إلى التفكير والتأمل في مستقبل الأيام والحياة القادمة.

«ماذا لو أصيب بمرض أقعده أو أضعفه وهو الوحيد في الدار؟»

ثم تساءل بنوع من القلق المستكين «لو أنّ حجارة الدار القديمة تداعت ذات يوم وسقطت عليه؟». وفجأة يلح عليه تساؤل مستيقظ «هل يمكن لك أن ترى ليلى ثانية؟» وقال يحدث الماكر بصوت مسموع «لو رأيت ليلى لاخترت حضنها» فصاح الببغاء «ليلى... ليلى». بعد قليل وهو يطرد القط بعيداً عنه «إني أحسد الهادي فهو لا يعرف إلاّ شيئاً واحداً، ولا أظنه إلاّ كافياً للطمأنينة!».

وكان يوماً مرتبطاً بالدار، ينتقل فيه بين غرفها المسكونة أو المهجورة، وكأنه يعيد اكتشاف السكن فيتحرك بين الإيوان والسطح الذي شهد ليالي الطفولة. يتفحص المرابع منقباً بعينيه ويتأمل ظلال السور الذي يحتضن مساحات السطح المتباينة الارتفاع. نظر إلى القلعة التي كانت تطلّ على حارتهم. القديم يحتضن القديم، فهل بات هو قطعة من القديم؟. ولم يستطع

أن يتخلص من فكرة ليلى تهبط عليه كظل سحابة، كما أنّ صورة الهادي تغمره بشعور طاغٍ مفتقداً وجوده معه، وكأن الشوق ذاك لم يعرفه من قبل، أو أنه استيقظ فجأة مع ذكريات أيام ليلى، وقد بات كحفرة فارغة في منحدرٍ تستدعي المياه المتساقطة بغزارة من ينابيع تفجرت لتوها في بطن التلال.

وجلس على المسند الحجري الذي استخدم لوضع الغسيل عليه قبل أن يعلق على الحبال. ولطالما هرب في طفولته إلى السطح ليكون في الموقع نفسه يتأمل جانباً من المدينة القديمة، ويعجب لذاك التقارب بين الدور مما يسمح لأحد أن يتنقل من واحدة لأخرى دون موانع، وكأن تركيب المساكن سابقاً كان يلغي الغربة، فأين التواصل الآن؟

فكّر في أمه، هل كانت خطتها وهي تفصل الأخوين، بعد طفولتهما المشتركة، عن بعضهما بعضاً، هي البذرة التي زرعتها كي يثمر الشوق والحنين بين الأخوين دوماً؟ وهل كانت فترة حضانة تلك البذرة طويلة هكذا كي تنمو شجرة الحنين إلى الماضي، أم أنها سياستها في زرع الاستقلال الذاتي والاعتماد على النفس عند الطفلين؟

وضع شاهد في غرفة مع مربية ارناؤوطية، كانت لغتها الثقيلة أو المنحرفة سبباً في تعلقه باللغة العربية بعد ذلك، بعد أن بات خلال فصل دراسي أضحوكة بين طلاب المدرسة وهو يؤنث المذكر ويذكر الأنثى، فبدا كمستشرق تغلب على لكنته لغته الأصلية. وأما الهادي فأصبح من نصيب أمه التي دافعت عن مبدئها في أن يكون لكل ولد من ولديها شخصية مستقلة. وهكذا كان الطفلان يجتمعان على الطعام أو في لعب الكرة التي كان الشاهد يجرّ توأمه إليها جراً، ولم تمنع خطة استقلال كل طفل في التزاور بينهما يقضيان أوقاتاً سعيدة مشتركة. ويجتمعان في فراش واحد يحتفظ كل منهما بحلمِه.

هل يلتقي بالهادي مجدداً ليحكي له قصة ليلى، عودة ليلى إلى المخيلة تلغي بذلك عشرات السنين، أو أنها تلغي الزمن، وهل يؤمن معه باستيقاظ حلم دفن في ركام الأيام فإذا هو كالجمرة تحت الرماد تحتفظ بحق توهجها في أية لحظة تشاء. وتوقفت أنفاسه فجأة وجملة من أفكار تهاجمه، هل كانت ليلى حقيقة أم أنها من نسج الخيال؟ إذن فهل هو شق لتوأم، أم أن تلك كذبة أيضا؟ ثم نفض عن عقله تلك التخريفات التي هاجمته. وجعل يستعيد ليلى. ليلى المتفردة من بين كل من عرف أو قابل من نساء، هل يمكن لها أن تضيع في زحمة العمر

هكذا؟ إذن فعليه أن يبحث بأية وسيلة. وبات البحث هماً بعد أن أعطته الإشارة في ذلك الحلم الغريب الذي لا ينسى، فعاد إليه يعاود قراءته حرفاً حرفاً ومقطعاً فمقطعاً. لايمكن لتلك الساحرة إلاّ أن تكون ليلى. وسُمع في أذنيه طنين كأنها تهمس فيهما «ابحث عني فقد تستعيد سعادة لم تنلها من قبل. ابحث عني لأنك لم تنسني، وقال للماكر الذي لحق بصاحبه إلى السطح «الأيام تمضي هكذا... ولكنني مازلت أفكر وأحلم...».

-٩-

رنين الهاتف كان يخترق السكون الصباحي ففوجىء شاهد بالمتحدث، ثم تأكد منه يقول نعم أنا سعد الدين الجابر. كان الصوت ضعيفاً وكأنه يخرج من صدرٍ ضيق. ويطلب الحديث مع شاهد الشهيد. وتعارف الصوتان. كان رجاء الجابر حاراً في أن يلتقي به في أقرب موعد، فهو لايملك الوقت كي ينتظر. وجد نفسه يعد بالحضور دون أي تردد مساء اليوم إن شاء. ويكتب العنوان ، وينطلق إليه في الموعد المحدد.

كان اسم المتحدث الذي غاب أكثر من ربع قرن يسترجع نفسه قوياً كما كان، فالجابر كان ذات يومٍ زعيماً سياسياً، يقود حزبه أكبر مجموعة من أهل البلاد، وبخاصة في حلب والمدن التي حولها، من تلال قريبة من البحر وإلى الحدود مع العراق، وكان آنذاك من رجالات الدولة البارزين الذين يساهمون في صنع القرار.

تذكر شاهد، يوم كان فتى يافعاً عند أول لقاء مع الزعيم، وكان ذلك في مصادفة دفعت بأبيه إلى اصطحابه مع الهادي

إلى الدار الكبيرة المشرفة على الطريق الذي يزنر القلعة ويقع على الطرف الثاني من حلقة القلعة. وكانت عيون الأنصار والمعجبين بالسلطة الساحرة التي قيل إنها لم تكن لأحد مثل الجابر. وجد نفسه آنذاك تنجذب إلى الرجل الذي واجه الجموع من وراء منصة بسيطة، وكانت أذناه تصغيان باهتمام إلى هدوء الكلمات والأفكار التي كان الجابر يسيطر بها على كل شيء. فانتبه الرجال كما حجارة الدار تتطلع إليه.

كانت تلك الزيارة للجابر من المرات النادرة التي حضر فيها والده اجتماعاً سياسياً، أكره عليه مع معظم تجار السوق. فيذكر أن الوالد قال هامساً في أذن ابنه إن الرجل يعد بالخير للبلد، بينما الهادي يفلت عائداً إلى الدار دون أن يكمل الاجتماع.

أراد شاهد بعد إقفال خط الهاتف أن يستجمع كل ما عرفه أو سمعه عن الرجل الذي لابد أنه تجاوز الثمانين من العمر الآن. وأن اختفاءه الطويل عشرات السنين قد غطى على ذكراه. فما عاد يذكره أحد سوى العجائز الباقين أحياء في المدينة أو بعض الكهول وهم يستعيدون أحياناً سماحة الرجل وبساطة تعامله مع الآخرين، فكان مضرب المثل في تلك الصفات.

حاول طوال اليوم أن يستذكر كل شيء عن الجابر الذي تحول من نجم ساطع إلى آفل في ساحة الحياة السياسية. وجعل يسأل نفسه عن سبب ذلك اللقاء الغريب مساء اليوم، أهو دعوة قدرية للانخراط في السياسة؟ أم أنّ الرجل بات عاجزاً وأن الأمر ليس له علاقة بماضيه؟ ولم هو بالذات وقد عرف عنه ابتعاده عن أية مشاكل؟

كانت دار السياسي العجوز ترتمي على أطراف المدينة الجديدة، وعندما وصل شاهد بسيارته إلى العراء المترامي حول الدار، بدت الإشارة واضحة في ابتعاد الجابر عن الحياة في المدينة، وأن تلك العزلة تفسر بشكل فعلي موقف الرجل من عمره. هكذا استنتج شاهد أموراً من موقع الدار النائية، وقال لنفسه وهو يقرع الجرس «هي النهاية!» وتكرر قرع الجرس وعقل شاهد ينتج الأفكار المتخيلة تدور حول الدار وساكنها.

الظلمة لم تكن بعد قد هيمنت على الأراضي المحيطة بالمكان، إلاّ أن الحديقة المهملة كانت تحيط بالمبنى ذي الطابقين كمثل زهر جنائزي تناثر على التربة المهملة، فاختلطت الحديقة بالعراء لا يفصلها عنه سور أو حدود واضحة. كان قد ترك سيارته الستروين القديمة ليعبر الممر إلى الباب الخشبي الذي بدا وكأنه نقل من دار أثرية ليكون مدخلاً إلى الدار الحديثة.

وعندما قرع الجرس للمرة الثالثة، تحركت دفة الباب ببطء شديد ليطلّ من خلفها رجل سقط على وجهه المتغضن نور الباب الخافت، فاطمئن شاهد إلى أنه يقصد العنوان الصحيح. وتحرك الرجل خطوة إلى الأمام ليظهر واضحاً، فبدت ملامحه وهيئته وكأنه قادم من حي حلبي عتيق كان مأهولاً منذ قرن مضى، فالقنباز المخطط يلف الجسد الناحل فيجمعه شال عجمي نسلت خيوطه. تطلع شاهد إلى الرجل، فكان شارباه قد تهدلا بعد انتصاب وغارت العينان في محجريهما يسيطر على النظر فيهما ذبول سرعان ما استعاد حيويته مع رؤية الغريب. قال شاهد «الأستاذ سعد الدين الجابر» فدعاه الرجل إلى الدخول بحرصٍ وكأنه لم يألف زيارة أحد من قبل وهو يتساءل متحفظاً «الأستاذ شاهد!»، فهزّ رأسه موافقاً، فدُعي إلى الداخل بترحاب كبير.

جال بعينيه متأملاً المكان بصعوبة، فأنوار الصالة خافتة، والسكون يشبه أجواء بيت مهجور أو أنه مقدس، فعاد شاهد يسأل نفسه عن السبب الذي جعله يستجيب بسرعة لدعوة رجل نسيه التاريخ، وماذا يريد منه ذلك المنسي غير مشاركته التحسر. أحسّ أنه في تلك اللحظات كمن يقف على جزيرة صغيرة متحركة في بحر كبير، وأحسّ أنه يطعن في العمر

أيضاً، وإن كانت حواسه قد تيقظت كشاب وهو يتفحص الصور الفوتوغرافية الكبيرة وهي تغطي معظم جدران الصالة، وكانت لأشخاص غلب عليهم انتماؤهم لزمن مضى. عديد من الرجال وامرأة واحدة لابد أنها الجدة الكبيرة وهي مقطبة في وجه عدسة التصوير المائي، وكانت هناك صورة مستطيلة تغطي مساحة من الحائط وتمثل قلعة حلب منذ أكثر من قرن وهي تنتصب وسط أبنية واطئة لابدّ من أن معظمها اختفى الآن فانتصبت عمائر حديثة عوضاً عنها، كما أنّ أوابد جميلة كجامع العثمانية وأسطح الجامع الأموي ظهرت في الصورة مع عدد من المآذن تحاول أن تشرئب بأعناقها تطاول ارتفاع القلعة. خيّل لشاهد أن الدار خالية من الناس، فلقد اختفى أيضاً العجوز الذي بدا كحارس من مخلفات الزعامة الماضية، وباتت السجادة التي تتوسط الصالة الكبيرة تحدد تحرك الشاهد ضمنها فلا يستطيع أن يخطو خطوة خارج حدودها. كانت السجادة كما تعلم من أبيه تعود إلى أكثر من قرن، ولابد أنها قطعة نادرة من هدايا ملك فارسي أو شيخ قبيلة هناك، أو أن صاحبها دفع فيها ثروة لا تقدر بثمن، فجعل شاهد يبحث عن تحف أخرى تضمّها الدار بين جدرانها، فرائحة الزمن المعتقة لابد تكشف عن عراقة ومجد سابقين. انتصبت في ركن جرة

يعادل ارتفاعها قامة رجل طويل، وقد لمعت في النور الضعيف، فكأن قشرة من الذهب تداخلت مع رسوم ظهر أنها صينية، فتأكد للشاهد أن أهل الدار مولعون باقتناء القطع الجميلة، وأن الزعيم السابق يتقن الاختيار حقاً.

عندما عاد الرجل العتيق ببطء ينسجم مع الهدوء السائد وإيقاع الزمن المتهالك، استجاب شاهد للدعوة التي قدمها الرجل للصعود إلى الطابق الثاني، فكانت خطواته تتوافق مع إيقاعات صعود العجوز على الدرج الحجري، وكان قلبه الذي ينبض متسارعاً يحرض مخيلته على تصورات مختلفة للقاء المرتقب.

كانت الغرفة التي اقتربا منها موصدة فنقر الحارس الباب بعظام أصابعه، ليجد شاهد نفسه عند مدخل الغرفة المربعة، وكان السرير النحاسي ينتصب أمام باصريه، ترتبط أعمدته بالسقف. وكان المشهد واضحاً له كخشبة مسرح تمثل فيها قطع الأثاث المنتمية إلى زمن مضى. والممثل الوحيد يستلقي على السرير العريض صامتاً يلتحف جسده الضامر بغطاء سميك، ويظهر الترحيب على وجهه بصعوبة. وأسدلت الستائر الشفافة على النافذة المربعة التي أحتلت حيزاً كبيراً من الجدار

الجانبي، وبات الفضاء الذي يحتل الغرفة الكبيرة يمتص أي احتمال لضوضاء أو ضجيج.

بات الشاهد وحيداً، يقف وجهاً لوجه أمام السياسي العجوز لبرهة من الصمت المطبق، فلم يشعر بثقلها إلاّ حين جاءه الصوت ضعيفاً ولكنه ترحاب واثق ومتزن، فدعي إلى الاقتراب من المستلقي والجلوس على كرسي مطعم بصدف مازال لامعاً.

أستاذ شاهد! عرفتك من صورك. أهلاً بك. حدثني عنك كثيرون. شجاعتك في الغوص بعيداً في أعماق النفس البشرية خلفت عندي شعوراً بضرورة اللقاء بك. أجاب بصوت خفيض شرفني حقاً أنك دعوتني إلى هذا اللقاء. قال إنه لاينكر أنه فكر بي منذ مدّة، لكن خوفه على أي أحد يتصل به من أن يصيبه اللوم، منعه من فعل ذلك. الآن ما عاد يخشى على أحد، فالمستعد للرحيل لا يهتم كثيراً لما قد يحدث.

كان وجه سعد الدين الجابر يطفح بالطمأنينة، وإكليل شعره الأبيض يتوّجه بوقار جاذب، فلم يتصور شاهد أن رجلاً مثله يمكن أن يرحل، وبالرغم من الشيخوخة التي ارتمت على

الوسادات البيض جلالاً يثير الهيبة، فإنه ظهر كأسطورة تتجدد في كل لحظة فلا توحي بأية خاتمة. وكان حضور شاهد يلتصق دهشة بعيني السياسي العجوز اللتين تحولتا إلى وهج بعد ضعف. وتحركت من تحت الغطاء كف برزت عروقها باتجاه الضيف، فوجد شاهد يده تمتد لتطبق عليها، فاشتعلت حرارة تؤذن بمودة مفاجئة، وتعلن عن حلفٍ لصداقة قادمة.

عمر طويل، حياة مديدة من زعامة، كانت سياسية فباتت جاذبية شخصية، ثم تحولت إلى استسلام على سرير الضعف. واستيقظت سنوات من العزلة بقرار من سعد الدين الجابر، لتصبح قضية. كان يرمي بكل ثقله بين يدي رجل قال إنه يستحق الثقة، وهكذا كانت بداية حكاية يرويها سياسي متقاعد، حاصره الصمت، لكاتب جفت ينابيع عطائه، فكانت شرارة البداية.

أنت تعرف والدي، فقد كان من جملة جيل أحبك، وأنا عرفت شيئاً من تاريخ البلد من خلال نشاطك وحيوية قيادتك. أنت وحيد وأنا أحس بالوحدة. أنت كهف حيوي يمتلىء بالذكريات والمعارف ويختزن حوادث ساهمت في تشكيل وجدان عام، وأنا بحاجة إلى مستقبل يحفل بالحيوية وبفعل أشياء لها قيمة.

وهو يشير إلى الضيف طالباً المساعدة، اعتمد الجابر على اليد الممدودة له، للاستواء قاعداً، ثم باستمرار المساعدة جلس على طرف السرير، فانكشفت عظام ساقيه الدقيقتين، وكان حجمه الصغير يشكل علامة وديعة بالنسبة لحجم السرير الهائل. كان يقيس بعينيه المسافة بين موقعه وبين الخزانة على طرف الحائط تغطي معظمه، ويظهر زجاجها مصنفات تملأ جانباً من الأرفف إلى جانب أكداس من أوراق كثيرة. وكانت النظرات المتفحصة توحي بخزانة أسرار خطيرة. قال الجابر من مكانه «أوراق كثيرة. وثائق أريدها أن تكون بين يديك تعيد ترتيبها وتصنيفها، كي تصبح ملكاً للباحثين والمؤرخين».

أية نعمة هبطت علي في منحي تلك الثقة! هكذا كان يفكر شاهد، بينما الجابر يتابع بأن أسراره التي سيفتح مغاليقها أمام شاهد، لن تكون من أجل رواية يكتبها، أو أنها مجرد مذكرات تقدم للناس، إنها مرحلة من مسيرة وطن لابد من معرفتها لاستكمال المسيرة. هو لا يطلب خلوداً لذكراه، فمن يقترب منه الموت بثقة لا يعنيه شيء سوى الحقيقة، والحقيقة قد لا تكون مهمة أو مرغوبة في زمن كهذا تأكله دودة النسيان، لكن إخفاءها في أية حال لن يتسبب في راحة يتمناها.

قال الجابر في معرض حديثه عن تلك الأوراق التي سيدعها له، إنه لم يكن مقبولاً من الأتراك أو من الفرنسيين من بعدهم. كان حزبه مكرهاً على قبوله زعيماً لسجله الحافل بالخدمة العامة ولأمواله التي صرف معظمها من أجله. ثم جاء العسكر ليحملوه بعيداً كي تختفي كل المراحل السابقة. ثروة العائلة بدأت بالتبخر وكانت السياسة كالاسفنجة التي تمتص كل ما حولها، من مال وشباب وسمعة. وهكذا اختفى الشباب في زحمة البحث عن هدف أو عن طريق اعتقد أنه يشقه كي يصير معبداً أمام كل الناس، فلم يعرف الزواج أو العائلة، لم يعرف الاستقرار والسكينة. وعندما خرج من الحجز، أو من الإقامة الجبرية كما كان يحلو لهم أن يطلقوا تلك التسمية على مرحلة العزل، قرر أن يتزوج. وزوجته امرأة نادرة لا مثيل لها، وعليك أن تعرفها، وأظن أن الأيام القادمة ستقدمك إليها، فهي النموذج الذي يتقن فن ترميم ما انهدم في سيرة الحياة الصعبة.

- ١٠ -

لم يطل لقاؤنا التعارفي الأول، ظهرت عليه علائم الإعياء فاعتذرت لارتباطي بموعد واعداً بالحضور ثانية. وكانت خطواتي تتبع أقدام الحارس في صالة الطابق الأرضي كمن يسير في احتفال رسمي أو يشيع رجلاً مهيباً. كنت مطرقاً برأسي إلى الأرض أحاول أن أستذكر كل كلمة قالها العجوز وهو يعلن بشكل خفي عن هزيمة ألحقت به. وكنت أفكر في الأيام القادمة التي سأتصل فيها معه بعد أن تنبه في داخلي حب معرفة المزيد عن ذلك الرجل الذي تتسابق إلى اختطافه أيادي الفناء.

واستوقفني في لحظة مفاجأة صوت أنثوي يبدو أنه كان يأتي من زاوية مجهولة في نهاية الصالة، كان ينادي على الحارس باسمه (عبدو)، والذي كان على ما يبدو يعود إلى زوجة الرجل، لكنني لم أجرؤ على التطلع إلى مصدر النداء فمضيت في طريقي بالرغم من رد الحارس قائلاً «نعم يا سيدي» وينفلت ملبياً بينما أتجه إلى الباب الخارجي. عرفت أنها لابد

تلك الزوجة التي قال عنها العجوز إنها المرأة النادرة، وتساءلت في سرّي إن كانت موجودة فلمَ لْم توجه إليّ التحية. أهي مريضة مثل زوجها؟ ولكن صوتها كان يحمل عافية وثقة تليق بندرتها. أهي امرأة محجبة لا تنكشف على غريب؟ ولكن مضيت إلى سيارتي.

كنت أقود السيارة عبر الطرق الخالية، وأفكر في اكتظاظ المدينة التي أتجه إليها، ولم تكن الزحمة قائمة أيام طفولتي، ولكنني قلت إنني سعيد بالعيش في زحمة حجارة المدينة بعد أن أحسست بوحشة الخواء الذي يحيط بالجابر من كل اتجاه. يا لوحشة السياسي العجوز! خرج من بيته القديم المحمي بصداقات المنازل المجاورة وتؤنسه علاقات الأحياء بها كما أن إطلالة القلعة المباشرة عليه كانت كسقف سماوي يظلله، هل يفتقد الآن ضجيج الأنصار والمؤيدين يلاحقونه ويرافقونه أينما ذهب وتحرك. وها هو ذا يخرج من دائرة اهتمام الآخرين والصحف سابحاً في بحيرة صغيرة من عزلة مركزة. ما هو مصير الإهمال يقع على روح أي رجل كانت تحيط به اهتمامات من الإعجاب أو الطاعة أو المحبة؟ كيف لنا أن نقاوم حالة الخيبة تلك؟ أهو الصبر أم أنه التأمل أم أنه القبول بما يرسمه القدر؟

عندما ابتدأت زحمة المدينة في مدخلها الذي تزينه كرة حجرية تمثل الأرض بقاراتها النافرة، قلت لنفسي إن الله لابد بعث بتلك المرأة لتغطي أرضه المتصحرة، وتساءلت إن كانت هي تلك المرأة ذات الصوت الآمر بسحرٍ خاص أو إنها تنتمي أيضاً إلى عالم مضى وانقضى كان فيه الحارس نموذجاً بل كان الجابر النموذج الأكثر تعبيراً. هل باتت هي من التراث، فصار لزاماً علي أن أزداد شعوراً بشيخوختي وأنا أنتمي إلى هذا العالم القديم الآن؟

وكأن الكرسي في مقهى القلعة كان ينتظرني بشوق فسعيت إليه جالساً لأبدأ بالاعتراف بكل ما أثير في نفسي من أفكار وصور، اختلط فيها كل شيء بكل شيء. ومع كأس الشاي هلّت علي حشود الذكريات، مذكرات الجابر وأوراقه، اختلطت بمنامات جدي التي تنتظر استكمال تسلسلها بمنامات جيل أكثر جِدَّة، بوحشتي في الدار وحيداً، بالحجارة المختلطة في أجزاء من داري، بليلى التي تداهمني في أحلام اليقظة والنوم. هجم على المخيلة كل ما كان متوارياً عن الأنظار والأفكار، وما عاد هناك سوى عزاء واحد هو الارتباط بأي شيء يحيط بي، جماد أو شخص يشاركني الأفكار، بات اليقين ثابتاً بأن التخلص من الوحشة لا يكون بالتأمل أو

الوحدة. واشتركت أنوار القلعة المبهجة بأنوار المقهى، ومع ذلك لم يستطع النور المنبثق من كل مكان أن يبدد غيوم خيالاتي التي تتجمع ثم ما تلبث أن تتفرق، كأنما هو مكتوب علي أن استقطب المتاعب والهموم.

هربت من السكون والوحدة اللذين يجتذبان عادة الانشغال بمراقبة أعلى القلعة، فاشرأب عنقي متابعاً ما كنت أتصور أني أراه. كان أخي التوأم يمشي على سور القلعة كملاك متمرس وشبح يشي برقة الملائكة، ظهر في بعض اللحظات وكأنه لاعب سيرك يميل بجسده إلى الوراء فيكاد يقع داخل السور ثم بحيوية يستعيد مرونته ليميل إلى الأمام حتى أني إخال وقوعه على سفح الخندق ثم ما يلبث أن يستعيد توازنه. فأغمضت أحسده على قدرته في البقاء وكنت أتصور نفسي مكانه فلا أستطيع أن أتحرك من مكاني خوف السقوط . كنت مصاباً بعلّة (التشويش) التي تمنعني من الحفاظ على موقعي، فأنا أسير موجات عنيفة من تلاطم أمواج الذكريات وأقف في نقطة المد والجزر لايمكنني التمسك بتوازني. كنت في تلك اللحظة مشتاقاً إلى الهادي وأبحث عن ليلى. شعرت بحاجتي إليهما كي أعثر على نقطة توازن تمنع عني التخبط الذي وقعت فيه روحي القلقة.

وضع الحاج صبحي، صاحب المقهى الصديق، حداً للتمزق، وقد التحق بطاولتي مرحباً. كان الحاج الذي ورث عن أبيه المقهى الذي طالما آنس زبائنه بالمودة، فحافظ على الشكل الحلبي القديم لمقهاه، فظلت الكراسي القش والنراجيل المبهرجة بزجاجها الملون يعكس قرقرات الماء كينابيع فوارة، تمنح رقعة المكان جاذبية لحياة قديمة منذ مئات السنين. قال الحاج صبحي «أين أنت يا رجل... أيام مرت ولم نرك فيها» ثم قال «لابد أنك تعمل على كتاب جديد». كنت أجيب بابتسامة باهتة فهتف قائلاً «سألني كثيرون عنك، وقلت لهم دعو الأستاذ في وحدته».

أتراه حان الوقت للبحث عن الغائبين واستعادتهم لاستكمال معنى الحياة؟ أهو اختفاء اختياري أم أنه قهري، أمْ أنها طبيعة الأمور لا تجمع الأحبة؟. سألني الحاج صبحي فجأة عن الدار وكيف أعيش وحيداً فيها وقد كانت تضمّ عشرات الناس من سكانها وأقاربها وضيوفها، وهل هناك أخبار عن عودة (الست)، وضحك قائلاً إن اختلائي بنفسي في دار واسعة يسمح للخيال أن ينمو ويعطي دون توقف. فأحسست بعد قليل أني أنفصل عنه.

كثير من الأمنيات تسابقت في ساحة تأملاتي، والفراغ من حولي يتسع لآلاف الرغبات والأحلام. هل أستعيد الماضي كما كان، وكيف ترجع عقارب الساعة إلى الوراء؟ أم أن المهمة التي حملني عبئها ذلك السياسي العجوز، ستسد الفجوات، أم أن في العودة مشاعر مبهمة من حب ضائع استيقظ كالثعبان من شتاء طويل، ستدفع بعجلة العمل المتوقفة فأعود إلى الكتابة التي طالما كانت المحرك الوحيد لاستمراري في الحياة؟

لماذا الكتابة؟ أهي عزاء يواسي صمت الوجود الذي يخيم أحياناً كشباك العنكبوت، أم أنها تخفف من قسوة الخيبة المنتظرة لفراغ محتمل. أهي نور يضيء لي الطريق، أم هي تسلية الروح التي تتلاطم الأمواج في بحيرتها. موجة حزن تتبعها موجة فرح، واحدة قاسية تلطم الوجه وواحدة رقيقة تساعدك على المتابعة. أهي الوسيلة التي لم أجد غيرها فحاولت بها أن أثبت لنفسي وللآخرين أهمية ما؟

وبالرغم من وقوع المقهى على حدود الدائرة التي تحيط بالقلعة، تمرّ فيها السيارات وكذلك المشاة ولا يعودون. ألم تخلق الدائرة لكي نعود فيها إلى نقطة البداية؟ ... وبالرغم من وقوع المكان عند بداية الشارع العريض الذي يمتد طويلاً لينتهي بعد مسافة عند أقدم مقابر المدينة، فأقف احتراماً عندما يمرّ أمام

المقهى منعطفاً إلى الشارع ذاك موكب جنائزي، بالرغم من كل ذلك كنت أتطلع إلى استمرار الحياة تحمل أيامها القادمة أشياء هامة وخطيرة وتقدم احتمالات لنبوءات تشير إلى حركة فعالة أو لربما إلى سعادة محتملة. ويدفعني إلى التفاؤل استمرار القلعة التي مازالت قائمة منذ آلاف السنين وهي تقاوم مداعبات الزمن الطفولية برجولة تعطي للشمس توقيت بزوغ الشمس عليها والغروب يليه بآلية مدهشة.

قال الحاج صبحي من جديد صابراً على سكوتي «أقسم أن صمتك يبشر بعمل جديد» فأجبت بضعف «لا يبشر صمتي أو كلامي بشيء، لا أكتمك أن الحيرة تتجاذبني ليكون القلق بديلاً من أي فعل ولو كان الكتابة»، ويضحك الرجل بمحبة «حتى صمتك يجيء بالفائدة»، وضرب كتفي برفق مداعباً «ندعو لك بطول العمر وبكثير من الأعمال التي تجلب المنفعة لنا»، وأعقب الحاج صبحي «قبل أن أعرفك في المقهى جيداً، وكنت آنذاك شاباً غير عابىء بشيء، حببني بك ظهورك بين حين وآخر على شاشة التلفزيون تتحدث بصدق. حببتني بالصدق، فتعلقت بك، وأنا فخور أنك تفكر بنا».

مضى زمن قبل أن أتوجه إليه بجدية، وكان قد عاد إلي ثانية، أسأله فتطلع إلي، وكأنه يتعرف إليّ مجدداً «ماذا تريد من حياتك؟». لم يستطع أن يفتح فمه بكلمة كما فعلت عيناه

المتسعتين عن دهشة. تساءلت باصرار «أنت حاج صبحي، ماذا تريد من حياتك؟». فدفعه إصراري إلى اتخاذ موقف، فحاول أن يبدو عارفاً وكأنه يستعد لمقابلة تلفزيونية «أريد...» ثم جمع شجاعته ليكمل «أريد أن أفعل شيئاً نافعاً. أن أكون مفيداً في عملي، أن أقدم شيئاً لعائلتي. أريد أن أعيش مرتاح البال، ثم توقف هنيهة يسهم بعينيه مستجمعاً شيئاً سيقوله «وأريد أن ألقى وجه ربي راضياً مرضياً»، فهتفت آنذاك «وتلك هي المشكلة، فأنا لا أعرف ماذا أريد من حياتي. أليس مستغرباً بعد هذا العمر كله أن نجهل ما نريد!»

تجمعت اهتمامات المكان الممتد على الرصيف الواسع، وتعلقت عيون أهله من زبائن كان معظمهم من شباب الأحياء الحديثة تعودوا على المقهى القديم، وكان منهم أجانب لا يخرج المقهى أو زيارة القلعة من برنامجهم، واستقطبت ضحكات الحاج صبحي كل الناس المنتشرين في المقهى، هو يقول بصوت مرتفع «الأستاذ شاهد الشهيد... الذي علمنا وما زال يعلمنا... الأستاذ شاهد لا يعرف ما يريد من حياته. عجبي!» وصفق بمرح كطفل يتلقى هدية «وهذا أمر آخر يعلمنا فيه الأستاذ شاهد معنى التواضع»، فابتسمت خائر القوى، وما لبثت أن تسللت خفية من المقهى عائداً إلى الدار، فلم أسمع كلمة وداع.

-١١-

كان اللقاء الثاني في غرفته أيضاً، ولكن المشهد كان يدل على أن اتفاقاً ما سيعقد بيني وبين سعد الدين الجابر. هو يجلس على مقعد من الطراز الفرنسي ويحميه الظهر العالي ويكاد يبتلع جسده الناحل. وأنا قبالته على كرسي بمساند، نتقابل مستمعاً إليه يقول لي إن كل أوراقه ووثائقه ستكون منذ الآن بين يدي. أنت الوريث الذي أثق به لحياده وبعد نظره في فهم سطورها والمعاني التي يعتقد أنها تضمّ خبرته وذاكرته وتطلعه إلى حب الوطن. أكثر من نصف قرن فيها جوانب خفية وملاحظات يجب أن تصل إلى الناس الذين يعنيهم تطور البلاد. قال «أنا لاأريد أن يضيع شقاء العمر سدى». وكانت في تصريحه رنة الخيبة التي أصابته فتحولت إلى رغبة في محوها بالإعلان عن محتويات ممتلكاته الفكرية لتصبح من ممتلكات الآخرين. أشار إلى الخزانة طالباً مني أن أتوجه إليها لأحضر صندوقاً من خلف صفوف المجلات التي تخفي ما وراءها، وقمت أمد يدي مفتشاً عن الصندوق فوجدته لأحضره وأسلمه له، فاحتضنه ككنز يخصّه.

مرة وجدت نفسي أمشي في مظاهرة نظمها الطلاب. كانت الهتافات تدعو إلى دعم الجيش الوطني الذي بدأ يتكون عقب الاستقلال عن فرنسا. كنت أصغر الطلاب، وكانت قامتي التي مازالت صغيرة تضيع بين صفوف الشباب المتحمس. وسأعلم أن مقدمة المظاهرة كانت من طلاب ينتمون إلى أحزاب مختلفة، لكن هدفهم المحدد في حماية البلد جعل من المظاهرة حركة واحدة. وعندما انفضت المظاهرة عند مركز المدينة، اشتبك طلاب في حوار يبدي فيه كل واحد منهم وجهة نظره في الحفاظ على الاستقلال معبراً عن مبادىء حزبه. سورية للسوريين، سورية للعمال الذين يبنونها بسواعدهم، سورية للمؤمنين بالله ورسوله، سورية للذين ناضلوا لإخراج المستعمر. وتحول الحوار إلى الصراخ والتشابك بالأيدي، إلى أن انسللت خارجاً من زحمة التجمع هارباً بقرار ألاّ أشارك ثانية في أية مظاهرة. كنت بالرغم من صغر سني أنفر من الصراع بين الأفكار المسبقة. كنت أجهل ما يدور في كواليس السياسة، ولكنني أعتقد بالوفاق بين الناس وبأن وحدتهم هي في عملهم المشترك.

أخرج الجابر خيطاً من رقبته ينتهي بمفتاح صغير أدخله في قفل ليفتح الصندوق أمام عيني، فإذا به يمتلىء بأوراق

ومظاريف. قال لي «هنا تجد كل الوثائق التي تدل على إثباتات أن معظم ما كنت أمتلك من أراضٍ وأبنية ودكاكين وأموال، قد ذهبت إلى الإنفاق على الحركة الوطنية التي تشكلت أيام الاستعمار للكفاح ضده. كذلك ما صرف على الحزب من مالي الخاص لدعم مسيرته» وأضاف بعد قليل يسترد أنفاسه، وهذا ما لا أريد أن يكون في تركتي معلوماً، بل هو لمعرفتك الخاصة التي ستساعدك على إنجاز العمل بتقديرك الخاص للوثائق التي تحتويها الخزانة».

- هل تحس بالندم؟

هكذا قلت له، فابتسم يجيب وهو يرد لي الصندوق:

- ألم يعد المال إلى أهله وأصله! ألم تمنحني البلد الكثير لأرد لها الجميل؟

فأطرقت صامتاً، فيعود إلى الحديث:

- تظنّ أنها الخيبة أصابتني! نعم فقد عرفتها منذ البداية.

منذ أن أصبح الجابر زعيماً لحزبه، كان تسعة رجال من عشرة يبحثون عن المنفعة لأنفسهم، كان يقول لنفسه دوماً إنها طبيعة البشر تظهر في كل حين. وأنا في السجن والحكام الجدد

للبلد يلبسونني ثوب أخطاء أتباعي وأنصاري، وكنت أقول لنفسي إنه حق الأقوياء فلم الاعتراض!

وقال إنه في عزلته الأخيرة هنا، قد انسلخ عن داره القديمة وحيّه الذي ولد فيه، فبات مكان مولده وكفاحه بناء حديثاً غريباً عن الطراز الذي وسم المدينة مئات السنين، فعلم أنه لم يستطع أن يفعل شيئاً للبلد الذي أحبه. قال إنه وهو معي الآن يريد أن يحول الخيبة إلى ذكرى تنفع الآخرين.

نركض... نركض في الأرض الحمراء نتخيل أنها ستنبت زرعاً طيباً، ثم نكتشف أننا نركض في أرض بور. هل أقول إنّ الخيبة قادت إلى يأس؟ لا، فأنا لم أعرف اليأس بالرغم من المرارة القاسية. قال الجابر مبتسماً هل تعلم بم تذكرني تلك المرارة؟ لقد شهدت بأم عيني، وكان ذلك إذا لم أنس في سنة من الأربعينات، الكثير من بساتيني وحقولي قد داهمها صقيع قاتل، فماتت آلاف أشجار الزيتون، وجفت نباتات أخرى، أي أن جهد أبي ومن قبله جدي قد ذهب هباءً مع موجة الصقيع، فقلت لنفسي ذات صباح باردٍ هل فقدت كل شيء!» ولكنني لم أستسلم، وابتدأنا في غرس جديد، فعادت الخضرة بعد سنين تعطي للتراب بهجة. علمتني الأرض أن اليأس هو الموت، وأما الخيبة فهي الحزن. الموت نهاية وأما الحزن!.

وهكذا ساعدني حب الحياة على رفض فكرة الموت. واستمرت حياتي بالرغم من كل الأحزان والخيبات. ليس مهماً ما حصدته من خسائر وما كان لي من أرباح، لكن المهم هو أن تصبح ذاكرة البلد ينبوعاً مستمر التدفق يصبح العظة التي تروي الناس وتساعدهم على تخطي مشاكل الحاضر وتوقعات المستقبل. أدركت أن قانون الحياة يشق طريقه الصعب وسط تلال أو سهول بالشكل الذي يراه مناسباً.

دخل علينا الحارس بالشاي، وضعه ومضى، وتابع الجابر يقول:

وهكذا ابتسمت في وجه الضابط الشاب الذي جاء مع جنوده لاعتقالي عقب الثورة التي قامت. كان محملاً برغبة الاقتحام المفاجىء خوف أن أفعل شيئاً يعرقل مشروع توقيفي، وكان أتباعه من الجنود الذين احتلوا حوش الدار القديمة، تكللهم مشاعر الخجل. كان من بين الجنود فتية عرفتهم من أبناء الفلاحين الذين كانوا يعملون في أحدى الأراضي التابعة لي. وقال لي رئيسهم بعد أن اطمأن إلي جالساً على مقعدي اقرأ في جريدة لم أبد أيه ممانعة «مطلوب مني أن اصطحبك معي»، فقلت له «أهو اعتقال قانوني تنفذ فيه حكماً قضائياً؟»، فصاح بنشوة بل هو اعتقال ثوري، ولقد انتهى دوركم،

فتساءلت إن كان دورهم قد بدأ، فنظر إليّ بحيوية منتصرة «ألم يبلغك ماذا يحدث في البلد، لم يعد هناك حزب يأتمر بأمرك، ولم يعد عندك فلاحون يطيعونك. هلاّ تفضلت بالذهاب معنا» فتساءلت إن كان ذهابي هو الآن، وقلت للشاب الذي لم أحقد عليه «أهو أمر رسمي بالاعتقال؟»، فقال منتشياً «بل نحن نأمر بانتهاء دوركم في حياتنا». قلت لنفسي «ومتى كان لي دور حقيقي!». وكانت تلك المرة الأخيرة التي أغادر فيها الدار ولا أعود إليها، فأحزنني فراق المكان الذي ألفته. هل كانت هي بداية النهاية؟

وكنت في معتقلي أنتظر صباح كل يوم جديد أي استدعاء يحقق معي فيه، ثم تأتي من بعده المحاكمة القانونية، فأستطيع أن أردّ عن نفسي أية تهمة من تلك التهم التي ترددها وسائل الإعلام التي كان يتسرب إليّ بعضها، ولكن تحقيقاً جدياً واحداً لم يجره أحد معي، فلم أمثل أمام أية محكمة، فكتبت العرائض، التي كان مدير السجن يبتسم وهو يقرأها ويعد بإيصالها إلى من يعنيهم الأمر. كنت أصرّ على محاكمة عادلة أو غير عادلة تضع حداً لحالة الانتظار التي كانت سنيناً لحقت بها الأيام التي لم أعد أميزها.

سأدرك بعد زمن قضيت معظمه في استكمال معرفة القانون بكل أشكاله، أن الغرض من حجزي هو إزاحتي من الساحة، فتعلمت صبر الانتظار. ولا أريد الآن أن أستعيد أيام الحزب والنيابة والوزارة فالقلق الذي عشته تلك الأيام علمني لعبة صدّ هجوم من الخصوم، ولكني لم أعلن عدائي للجماعة التي زجت بي في السجن، فلم تكن هناك خصومة. هل أدفع أنا ثمن الولاء المجاني لي من جماعتي وهم يرتكبون الأخطاء؟ يبدو أن اللعبة كانت في أن أسدد أنا الفاتورة وحدي، وبهذا كانت حصيلة العمل السياسي النافع أقل مما كنت أتوقع، ولقد توضح لي الأمر في أيام العزلة التي تخف عني في خلطتي بين حين وآخر بمعتقلين جاءوا من أحزاب أخرى. وكنت أزداد معرفة بأن الآراء المختلفة أو المناقضة تستحق التأمل، وأن السجن مدرسة نافعة أيضاً.

طلب مني أكثر من مرة أن أتقدم بالتماس مشفوع برجاء الإفراج عني، لكن الكبرياء كانت تترسخ عندي يوماً فيوماً، فلم أفعل وانتظرت نهاية الحكاية، فقد استوت الأيام عندي، ولم يكن عندي أحد ينتظرني، عائلة أو أقارب، فما الفرق بين حجز في زنزانة أو في انطلاق متحرر! الحرية هي في داخل النفس. كنت حراً.

سألت الجابر «أليس للجسد حريته، يتنقل كيفما يشاء» فأجاب مبتسماً «لا بد من عزاء نقدمه لأنفسنا يا صديقي» ثم أكمل:

فجأة أفرج عن الرجل الذي عكست المرآة شيبه وغضون وجهه. سنوات طويلة حاولت أن أحصيها من عدد الأوراق التي تضمها الكتب التي سمح لي بقراءتها من رقيب طيب كان يحضرها لي بانتظام. قيل لي ذات يوم تفضل فأنت تملك حرية الخروج.

وجدت أنّ ملابسي باتت فضفاضة على الجسد الذي بات ناحلاً كناسك، ووجدت أنّ التأمل هو العزاء. كنت قد خرجت إلى المدينة التي تغير فيها كل شيء فدهشت. كانت دار العائلة قد أزيلت لتنتصب عمارة على أرضها، وعلمت أن ظاهره الهجوم على المساكن القديمة، أثرية أو غير أثرية، تفشت في المدينة لتتغير معالم من شخصيتها. ابتعدت إلى أبعد نقطة من المدينة لأعيش هنا تحيط بي أرض خالية، ولكني سأكتشف أن مجمعاً كبيراً يبعد عني إلى الغرب قد نمت فيه قصور صغيرة يسكنها رجال ينتمون إلى السلطة تقوم على حراستهم دوريات متناوبة من مسلحين يقظين. كنت الوحيد في هذه الناحية بلا حماية.

ثم جاءت الرحمة من السماء، فكان زواجي المتأخر من سيدة نبيلة قبلت بي وبشيخوختي، التعويض الجميل عن كل سنين السجن والخيبة. سأترك لها ما بقي من ثروة تعينها على مواجهة الحياة. وستكون لك أوراقي. لا تظن أني أودعك سراً أو وثيقة ضد أي أحد فرداً كان أم نظاماً، بل هي أوراق فيها أشياء من تجارب قد يفسرها قارىء لبيب لصالح مستقبل بلد فقدت أنا مستقبلي فيه.

بلد مصابة بلعنات الجغرافيا وسخط التاريخ، ولقد وعيت أنا اللعنة الأخيرة، عندما اعتدي على جغرافيتنا بسرقة الاسكندرونة، وقلنا إنه بخروج الفرنسيين سنستعيد حقنا، فكان أن خرجوا لتضاف فلسطين إلى لائحة المسروقات. حاولنا جهدنا أن نستعيض بالوحدة مع أي عرب آخرين، فازداد التقوقع عند كل العرب، وتكاثر عدد الجزر المنعزلة في بحيرة الأمل العربي المفقود. كذلك تحولت أنا إلى جزيرة صغيرة طافية على السطح وقد جلّلها الصخر وبعض الأعشاب غير المفيدة. كنا في الشباب الأول نحلم بالخلاص من بلادة حكم الاستانة، وكشفت لي دراستي في فرنسا مدى بعدنا عن التقدم المطلوب وكنت أقول لنفسي في بداية العمل السياسي، لم لا يكون لنا الآن رجال مستنيرون كالشيخ محمد عبده،

وكنت أتمنى لو لحقت بأيام الكواكبي وتعلمت منه، وعندما علمت عن قتله بالسم لم أدرك فداحة المصاب إلاّ متأخراً. بعد أن ضاع من يستحق أن يُدسّ السم له. كنت أكن احتراماً لابراهيم هنانو وهو يتخلى عن ثروته من أجل استقلال البلاد، ومن قبله تقدم يوسف العظمة نحو الموت كي يسجل موقفاً مشرفاً بالرغم من معرفته السابقة بالنهاية المحتومة.

كانت لي في أيام السياسة فرصة لاكتشاف خريطة البشر. أكثر الخرائط تعدداً للألوان والتضاريس. متزمتون يدافعون عن الطربوش، متفرنجون يروجون للبرنيطة، اشتراكيون، متدينون، معجبون بنظم عسكرية وفاشية تفشت موضتها كالوباء، حالمون بمجد المنطقة التاريخي وقد تعاقبت عليها حضارات كبرى، دعاة لإحياء الماضي لمجرد أنه الأفضل دوماً، حجاج لقبور لا يعرف أحد حقيقة الراقدين فيها. أعلام اليسار كانت ترفرف في فضاء ترتفع فيه شعارات اليمين، وبيارق ملونة لا يعرف أحد هوية أصحابها. هو عصر التشيّع، جماعة تنتصر لواحد من أهل السنة وأخرى لعلي وأسرة الإمام وعائلته وأهله وقد لاحقتهم لعنة الغدر والقتل، وجماعة تتقن إصدار فتاوي التكفير، وأخرى تدافع عن الفرنسية وكأن لغة غيرها شيء كالطاعون لا يجب الاقتراب منه والعربية كائن

لغوي متفسخ، وكانت التركية قد سقطت ورقتها إلا عند بعض العجائز. اللغة الأكثر فصاحة هي لغة المنفعة.

وقال سعد الدين الجابر يستبد به غضب خفيف كأنما يحاول أن يستعيد شباباً تحول إلى سراب:

وأنا أيضاً كنت أسير التشيع في أكثر الذي كنت أفكر فيه أو أحاول عمله، فأنا لم تتح لي فرصة نقية أفرض فيها العقل على أي عمل أو سلوك أو فكرة، بالرغم من فرصتي بالاحتكاك بثقافة جديدة يسود فيها العقل. كانت الاستجابة لأفكار ضاغطة هي الأسلوب الوحيد لتلافي الحوار الساخن أو الاصطدام بالأصدقاء والخصوم على حد سواء. وفي زنزانتي سأكتشف الخطأ الذي كان يحيط بي من كل جانب، وستتسع دائرة الاكتشاف مع المزيد من أيام التأمل المتراكمة، كذلك القراءة. كتب كثيرة علمتني أن طريقتي السابقة في العمل لم تكن هي التي يمكن أن توصلني إلى الحقيقة، أو ربما إلى الحلم الذي ابتدأ يتبلور مع الشباب في بدايته. وأعطتني فرصة الاطلاع على معظم الصحف اليومية والأسبوعية التي كانت تهرّب إليّ بانتظام، فرصة معرفة الخلفيات التي كانت تقف وراء العناوين الكبرى والفرعية وكذلك الافتتاحيات والأعمدة الثابتة، فتتبين لي بعد مدة من متابعة خط الإعلام أن الأصوات

تخرج من نبع وحيد وتصب في مجرى واحد، هو التعبير عن تفكير السلطة الحاكمة في معظم البلاد مع تنوع الرجال الذين يتعاقبون. وتساءلت إن كنت على خلاف مع أولئك الذي أوقفوا نشاطي السياسي أم أنني أستطيع أن أؤيدهم. قلت لنفسي في آخر المطاف إنني بت كما يبدو موضة قديمة ويجب علي الابتعاد. ليس لي مكان. خلفيتي المزخرفة بأسلوب جاء من ثقافات مختلفة وبيئات متنوعة، عرفت أخيراً أنني أصبحت خارج الدائرة الفاعلة في حياتنا السياسية ولربما الاجتماعية أيضاً. كانت عزلة الاعتقال الطويلة هي الشكل الذي سأكون عليه عندما أفرج عني.

كنت في البداية أعمل في السياسة استجابة لتقاليد العائلة والطبقة التي كنت أنتمي اليها، وبت بعد ذلك أفكر في العمل السياسي كحلٍ للمآزق التي وقعت فيها البلد التي لم تعرف غير التبعية لجهة أقوى، ثم انكفأت على شيخوختي التي كانت حصيلة عمر متناقض، وابتدأ حوار طويل غير منته مع الذات. أنا الآن لا أريد شيئاً سوى أن يكون لخبرتي، مهما كان شأنها، دور في تقديم خدمة ما، وأرجو أن يكون نافعاً. أليس مطلباً معقولاً؟

-١٢-

ماذا حدث لي ، فلقاء لم يدم سوى أيام قليلة غيّر فيّ أشياء مختلفة . أحاديث الجابر حفرت في نفسي ، وساهمت في كشف أمور بدأت في تلمسها ، ليكون ثمة تحول ، وكانت العطالة التي استمرت سنوات رسخت في أعماقي الاستسلام والرضوخ لما هو قائم . بت أسير هذا الزمن بعد أن كنت سيده . ويبدو أنني حقاً قد فقدت القدرة على الكتابة بمعنى إعطاء معنى لما يدور في رأسي ، فهل أنا هو ذلك الذي يستطيع أن يحفظ لرجل كالجابر خبرته السابقة وتاريخه الطويل؟

هل أستحق فعلاً ثقة كهذه ، فالرجل في تواضعه ، الذي حسبته في البداية صورة من صور ضعف الجسد وتقدم العمر ، حالة نادرة ليس في عالم السياسة وحسب بل في مجتمع غلب عليه التفاخر والتباهي بأي فعلٍ أو مكتسب أو وراثة مهما كانت القيمة . كان يعتب على نفسه قصورها في فهم الواقع ، ولم تكن أحاديثه سوى حالة من الفهم الواعي للواقع نفسه ، فماذا عن أوراقه؟

وبالرغم من أنّ السياسة لم تجتذبني إليها كما يجب، وكنت ابن جيل حكم بانتمائه إلى السياسة التي لم يتعرف بعمق إلى جوهرها، وزادني بعداً ما كان يمر على البلاد من أحداث وتقلبات وشخصيات كثيرة منها من لم يتقن سوى البلاغة الظاهرية. وهكذا نجوت طوال تلك السنين فلم أقع في فخ أية فكرة أو تنظيم، لأقع فجأة في فخ الرجل الذي يدفعني بلباقة كي أحاول جاداً اتخاذ موقف ما. حالة الصدق تتجلى في كل أحاديثه لترسم حدوداً جديدة وأطلّ منها على تاريخ البلد الذي كنت على ما يبدو بعيداً عنه وقريباً منه في اللحظة نفسها.

كان معظم رفاق المدرسة قد انتظم في أحزاب متضاربة، وتكوّن وفقاً لانتمائه. منهم من استمر على إيمانه حتى بعد تخرجه من الثانوية فالجامعة، ومنهم من تغيّر فانقلب أو تحول إلى حزب آخر. أحزاب يسار، أحزاب يمين، أحزاب دينية، وأخرى قومية. حماسة أنصار الأحزاب المتنوعة كأزيز خلية النحل، وكانت لي صداقات مع الجميع، انتهت إمّا بانهماك في عمل حكومي أو تجاري أو لربما زواج، وجعلني البعد عن الانتظام في أي التزام حزبي قادراً على إطلاق بعض الأحكام التي ما كانت لترضي أحداً من رفاقي الذين سينفضون عني واحداً واحداً موجهين إليّ الاتهام بأني رجل سلبي لا ينفع.

ثم بعد أن أصبح كل شيء منسياً على رفّ الذكريات، يطلب مني وبشكل مفاجيء، لم أكن لأخطط أن أصغي لمثله، أن أتحول من كاتب دراما أو روائي إلى مؤرخ أو كاتب موثق. ألم أكن قد اتخذت قراراً في مناصبة العداء لكل ما يمت بصلة إلى تدوين السيرة الذاتية ، فقد كنت أحسبه فناً ناقصاً وواقعية مزيفة، واعتقدت مثل ذلك العمل عجزاً من الكاتب الذي كان يركب الخيال ويطوعه لصالح فكرة ما، وإذ يفقد القدرة التخييلية وسيلة للتعبير عن نفسه وأحلامه وتوقه إلى تأكيد الذات، فلا يفعل آنذاك سوى السيرة الذاتية، يكتبها عن نفسه أو عن الآخرين.

هل كانت كتابتي للأحلام التي تهاجمني ليلاً في الأونة الأخيرة، نوعاً من تدوين أشياء شخصية أشبه بالسيرة الذاتية، أم أنها كانت نوعاً من التفريج عن أيامي المتشابهة، المملة، أم أنها كانت العزاء أقدمه لنفسي ككتابة بديلة. وها هو الجابر يخطط أن ينتزعني من فخ الأحلام ليوقعني في فخه الذي بدا واسعاً مثله كمثل تاريخ البلد. قلت لنفسي «إنه لا يخطط بل يصيب من غير أن يدري».

كأن تقويماً جديداً دخل حياتي منذ اللقاء الأول مع السياسي العجوز. كنت أريد أن أهتف عالياً، ولكنني تمتمت في سري أقول بحرصٍ:

- ألا يمكن أن تكون حياة الجابر أشبه بالحلم!

ثم ترددت عن قبول الفكرة لأهتف تلك المرة بصوت مسموع:

- ألا يمكن أن تكون حياته أشبه بالحلم، وعلي أن أجعله حقيقة مكتوبة؟

ووجدت أني اتخذت القرار المعقول، فقررت أن أتوجه إلى داره لأقول له متى نبدأ؟

قال الحارس العجوز بألفة عبر الباب المفتوح لدخولي:

- كان بانتظارك، لكنه متعب الآن ويستريح. أظنه لن يستطيع لقاءك ياسيدي. وكدت أعود على عقبي لأني أتيت من غير موعد، لكن صوتاً استوقفني من عمق الصالة المعتمة، يهتف بالترحيب ويرجو أن أدخل، وكأنه يقدم اعتذاراً عن عجز سيد الدار في استقبالي.

جمدت ساقاي لحظة، ثم تقدمت بخطوات بطيئة لأصبح داخل الصالة، وكانت صاحبة الصوت تتقدم أيضاً بخطوات ثابتة عبر العتمة المضاءة بنور خفيف لتؤكد أنها صاحبة الدار وهي تعطي للمكان هيبة المملكة القديمة. كنت أعلم أنها هي تلك السيدة التي أشاد بها الجابر زوجة نادرة. وكنت أستعد قلقاً للتعرف إليها، وقد جعلت خطواتنا المتقدمة اقترابنا أكثر فأكثر.

ظهر من خلف السيدة المنتصبة بكبرياء الركن المتصدر للصالة، وهو يضمّ مظاهر حداثة تنعزل عن قدم الأثاث في الصالة. هناك استقبلتني السيدة، فتمازج مشهدها مع المقاعد المريحة من الطراز الانكليزي الذي اختلف بشكل واضح عن الأركان الأثرية المتعددة والتي كانت تحدد حدود الصالة ومساحتها الكبيرة، وهي تعطيها نكهة الماضي.

امتدت كفها للمصافحة، فإذا بتلامس الأيدي ينقل الإحساس بوجهها المصطبغ بالهدوء المريح وهو لا يمنع الكبرياء من الحفاظ على جمال فيه خوف. وظلت كفها تملأ كفي بالترحيب ثوانياً خلتها دهراً، بينما أوغل بجرأة في لحظات الكشف عن حقيقتها التي بدت متسارعة لي. لحظات عتيقة تتصارع مع اللحظات الحاضرة، كانت تتعاقب. وكغيمة كثيفة حركتها ريح ساكنة تتثاءب ثم تنطلق مسرعة، امتلأ الفضاء بانفراج مفاجىء، فظهر وجه ليلى كما كان دوماًمشرقاً، كمثل ذلك اللقاء الأول في المتحف وليلى تروي المكان بحيوية شباب لا يعادله شلال ماء هادر. ثم عاد كل شيء إلى الزمن الحاضر، فظهرت السيدة ليلى بهيبة تعادل تاريخ الزوج المستسلم للزمن في الغرفة العلوية. كانت رائعة الجمال وكأن الزمن نسي أن يمر عليها فانعطف يرسم على وجوه أخرى آثاره.

ها هي دائرة الزمن تدور وتدور، لكنهــا تعــود إلى نقطة البـداية، وهكذا توقـفت لهـفـة البـحث عن ليلى في لحظة ساخرة، فها هي تظهر من جديد، كأنما دائرة الزمن رسمت لتـفعل ذلك، ولكنني لا أملك سوى التـهـيب. كنت على مايبدو شبه مجهول منها حتى تلك اللحظة التي أفلتت كفها مني، آنذاك برقت عيناها بوميض من دهشة وفقّها إلى مزيد من النظر إليّ، وكـأنهـا تجري مـعـاينة دقـيـقـة لعـلاقـة الماضي بالحاضر، أو أنها تطابق بين ذاكرة النسيان ومشاهدة الواقع.

إذن فليلى كانت هنا منذ البداية، ولم تدلّني حاستي الخفية التي طالما اتكأت عليها في مسيرتي. هل كان علي أن أدرك أنها هنا والجابر يتحدث عن امرأة نادرة، إذ لا يمكن أن تكون إلاّ هي فـخـانني ذكـائي. وعندمـا دعـتني للجلوس فـعلت مسروراً، كنت فقدت كل مقاومة وأنا أتأملها وقد قاومت حمض الزمن، فلم تستجب لتحولات الأيام وكأنـها تحافظ على نفسها كما كانت يوم أذهلتني بصباها المثير.

ليلى... أيتها السيدة... يا ألق الماضي والحاضر والمستقبل. ليلى القوام المكتنز بالرشاقة كالفلة (المكّبسة)، مازال كيانها يملأ حيزاً من الأثير الذي يرافقها أنّى تحركت، ومساحة الوجه المشع

بحرارة خفية تعكس كل الأشواق العائدة اليها، تنبض بالشكر لنبع الجمال، كانت كفتاة أحبت لتوها ولكن الوقار قيّد الرغبة عندها، فتجمد قرار الحب في لحظة ولادته. واشتعلت الكبرياء في نظراتها العميقة والتفت حول الذراعين المعقودتين على صدرها، حين توجهت بالشكر إليّ لأني سأفعل شيئاً من الود لزوجها الذي قوبل حبه واهتمامه بالنكران. قالت إنها منذ هذه اللحظة على استعداد كامل لمساندة جهودي وللمساعدة في الحفاظ على مخزون الرجل المتعب مهما كان الوقت الذي يحتاجه ومهما كان نوع المجهود.

هل تحاول أن تتجاهلني أو أن تنكر معرفتها بي، أم أن احترامها الفائق لزواجها يمنعها من استعادة الماضي. كذلك كنت أحاول أن أبعد الأفكار التي تنمو كالنباتات الشيطانية حول مستقبل العلاقة بيننا، أم أن المستقبل سيكون في استمرار التباعد، أو أن لاشيء اسمه مستقبل لنا. وانتصرت لهفتها على زوجها في مساعدتي على إبغاد أية أفكار لها علاقة باستمرار الماضي. وتشاركنا حديثاً عن تاريخ الجابر، ولكن ما كان يحدث لم يوقف رغبتي المتزايدة في معرفة تفاصيل أخبارها وخطوات حياتها منذ أن فقدتها، منتظراً الوقت المناسب لطرح ذلك النوع من الأسئلة.

- ١٣ -

لم يجرحني أن تقفز ليلى على زمن الشباب بمهارة، وإن كانت عيناها تدلاّن على معرفتها بي. كانت جلستنا في الركن حميمة تشير إلى تواصل لقاء كان قد انقطع. وجاءت مناداتي باسمي أثناء حديثنا لتشير إلى أن الماضي لم يمت في داخلها، فهدأ قلقي.

قلت لها إن حوالي ثلاثة عقود من حياتها لابد كانت مليئة. قالت مبتسمة وظلال سخرية على شفتيها «بل كانت متخمة بالأحداث». كيف كانت عني خافية تلك المدّة، هكذا تساءلت سراً، وتوجهت باللوم لنفسي لأني لم أكن جاداً في أي بحث عنها أو ربما استفسار عن أخبارها. فجأة قالت ليلى وكأنها تقص حكاية بعيدة عنها:

كنت أبحث عن حياة مستقرة كأية فتاة، ولم يكن الاستقرار يعني سوى الحصول على الشهادة. وكان والدي رجل الأمن يحاول أن يقتفي آثار المجرمين بكل موهبته التي وسمت حياته،

ولكنه من طرفٍ آخر كان على ما يبدو يتقصى أخبار زوج مناسب لابنته الوحيدة. هل كانت فكرة الموت في أية مداهمة يقوم بها لوكر أو لشخص هارب تسيطر عليه، أو أن تقاعده الذي جاء بعد ذلك مفاجئاً دفعه إلى التفكير في الفرصة التي يؤمن فيها مستقبلاً لأولاده الأربعة، وكنت الوحيدة فيهم التي تتابع دراستها الجامعية. كنت أعدُ نفسي بمستقبل في عالم الحقوق والمحاماة، وكنت مؤهلة ولا أفكر إلاّ في النجاح.

تساءلت «وهل تحقق حلمك؟» فقالت متابعة:

هل يمكن لامرأة في مجتمع ذكوري أن تدافع عن حقوق الجميع، رجالاً ونساء؟ ولم لا، أو لم يكن والدي برتبته الصغيرة يعمل على تطبيق القانون؟ فلم لاأدافع عن القانون أنا! متفوقة في الدراسة، وأثير اهتمام الأساتذة والطلاب إلى تلك الفتاة التي لا تخجل من أي سؤال تستفسر به عن أبعاد القانون في فهم المجتمع وفي الدفاع عنه.

قلت «هذا من حقك»، فاستمرت تقول:

وكان والدي يتطلع دوماً إلى زوج ثري يليق بمؤهلاتي التي آمن بها، ويضمن لها مستقبلاً مضموناً، وقد يؤمن بذلك لأولاده استقراراً. وهم الذين لم يوفقوا في دراستهم أو في إتقان مهنة دائمة تضمن لهم رزقهم من بعده. قال لي مرة «أنت

ابنتي الوحيدة وأنت السند لهذه العائلة، وزوج ميسور سيخفف عني عبء التفكير في المستقبل».

وكانت دعوته تلك وهي تحمل الرجاء المتوسل، تدفعني إلى الإحساس بتفوق أنوثتي وطموحي في فعل شيء له قيمة، وتجعلني أحياناً أفكر في زوج استثنائي، وأعترف أني لم أجده في أي من الرجال الذين قابلتهم أو أن والدي رشحهم، فلا أجد سوى ازدياد التعلق بمستقبلي القانوني. هل أقول إن شعوراً بالعدل الذي يجب أن يتحقق، قد تملكني.

وسكتت ليلى عن المتابعة منادية على الحارس أن يحضر محفظة الجابر ففعل، فكانت مليئة بالأوراق والدفاتر، فرشتها على الطاولة التي تفصل بيننا. قلت ونحن نتابع فرز أوراق الجابر الذي ظلّ راقداً في الفراش مستسلماً للأدوية المهدئة «اسمحي لي أن أؤيدك في اعتزازك بنفسك»، فانفرج وجهها عن ابتسامة خاطفة ومن ثم عادت إلى ترتيب الأوراق. هل عدَّت نفسها شريكا في العمل الذي عهد به زوجها إليّ لإعادة الأيام الماضية، أم أن ذلك جاء مصادفة فأعطيت فرصة متكررة للاجتماع بها. وهل كان قرارها في العمل معي سابقاً، أم أنه جاء بعد معرفة أني أنا الذي كلف بالمهمة؟ في الأحوال كلها رأيت الأمر لحظة سعيدة تبشر بأيام أفضل.

خفت أن أتمادى في الكشف عن مشاعري التي لا تحمل سوى الحب المستيقظ كجني علاء الدين، وكان علي أن أقيد لساني وأسيطر على عيني اللتين تسترقان النظر بين حين وآخر من ليلى المنهمكة في ترتيب الأوراق. خفت أن تتصور في حضوري إلى دارها نوعاً من تنفيذ خطة مسبقة، فالتزمت الصمت. تابعت هي بعد قليل، وقد شاهدتها تخرج سيكارة من صندوق على طاولة جانبية، كانت هي من المرات القليلة التي أراها فيها تدخن. قالت: في (العقبة) كانت دارنا التي انتقلنا إليها بعد رحيل الوالدة رحمها الله. كنت أطل على جانب من المدينة والمقبرة التي كنت أراها من عليتي تعيد إليّ دوماً ذكريات أمي، ولكن الهواء الغربي الرقيق يهب علي فأستعيد تفكيري في المستقبل، فلا أتطلع إلاّ إلى الخطوات التي يجب أن أقطعها لتحقيقه.

وفي ذلك اليوم، كانت الدار تستعد لاستقبال ضيف قال والدي إنه مميز، وماعلينا الآن إلا أن نبذل كل جهد في إعداد استقبال لائق به. الدار ضيقة ولكننا بقينا فيها، فالمالك كان يخشى مطالبة بإيجار أفضل، فسمعة المساعد أول في الأمن الجنائي الذي كان بعبعاً ما زالت تثير المخاوف. هل كانت قسوته مثار إعجاب الرجال، أم أن كونه أباً لفتاة جميلة هو

الذي زاد من التقرب إليه؟ وسيفسر كل شيء دخول الضيف الذي توسط خمسة رجال أقوياء بدوا كفرقة حراسة مشددة، كانوا يرتدون قنابيز مخططة متشابهة تسفر عن فتحة المعطف الأسود الطويل، بينما الضيف يحتفظ بأناقة حديثه، فظهر- وأنا أتجسس عليه من فتحة النافذة العلوية المطلة على أرض الدار- واثقاً من نفسه ويتابع الموضة كأي ثري يختلط بالأجانب الذين كنا نتابع أخبارهم في المجلات القادمة من بيروت أو عبر شاشة السينما. وقف في مركز الدار وتلفت حواليه وكأنه يعاين الموقع بثقة متعالية، ثم اتخذ مقعداً له يحيط به رجاله فاستوى يمدّد ساقيه كأنما اتخذ قراره في التآلف مع أهل الدار على طريقته الخاصة. كنت أراقبه وأتعجب.

كان والدي فرحاً كطفل وهو يرحب بالجماعة الذين اصطفوا على المقعد أو وقفوا خلفه كالديدبان الذي يتوجس شراً، علماً بأن طبيعة الدار الصغيرة توحي بالأمان. وكان قد أشرف بنفسه على إنزال الكراسي والمقاعد من الغرف إلى أرض الحوش الضيقة، فكان أن غطى الضيوف بأجسادهم الضخمة المكان، فانتشرت الزحمة دون حاجة إلى أثاث. وكان دخان رئيس المجموعة الذي لم ينقطع عن التدخين طوال الزيارة القصيرة، قد خيم كظل ثقيل على الدار.

وسيصعد الوالد إليّ مبتهجاً وهو يزف إليّ نبأ العريس الذي لا مثيل له. خاطبني قائلاً:

- فرصة لا ترفض يا ابنتي. فكري بإخوتك.

ثم هتف وكأنه يبشرني بأجمل نبأ خيل إليه أنه يسبق الناس جميعاً في القائمة:

- مبروك يا حبيبتي الجميلة.

ثم انقلب عائداً إلى ضيوفه دون أن أنطق بكلمة واحدة، كأنما عدَّ صمتي الذاهل عن كل شيء نوعاً من الموافقة على خطته في اصطياد الرجل الثري.

كنت أستمع إلى حكايات تتردد في أروقة الكلية أو في الصالونات الفنية أو الأدبية، تحمل في طياتها انتقادات لاذعة من المثقفين لصفقات الزواج، وبخاصة تلك التي تقدم فيها النسوة المتعلمات قرباناً على مذبح الأغنياء، زواجات لا حب فيها ولا تماثل ولا انسجام، فكيف بي أقف صامتة أمام قرار متعسف كالذي اتخذه الوالد، وأنا الأثيرة لديه، وأنا كنت الصدر الذي يستوعبه عندما يقع في مشكلة أو أزمة. هل حب الآباء أكذوبة، أم أنه فقد البصيرة عند أو ل بريق للمال؟

من جديد نظرت عبر فتحة الستارة إلى الحوش، حيث كان التجمع الذكوري يضج بفحولة لم أشهد مثلها من قبل. كان الوالد فرحاً بالجماعة، وها هو يعبر عن مشاعره التي توهجت في ذلك اليوم، كما لم أره من قبل في مثل هذه الحالة، ثم هو يرفع كفيه إلى السماء برهة يختتمها مع الآخرين بمسح وجهه. كأن في الأمر طقساً سأدركه بعد لحظات، فالرجال الذين انتهوا من احتساء الشراب في الكؤوس المذهبة التي كنا نحتفظ بها للمناسبات الخاصة، ينهون الآن قراءة (الفاتحة). كل ما عرفته من والدي وهو يعود إلي، عن الرجل الذي سأرتبط به، أن اسمه الوجيه (عبد الوهاب الشايط).

وقعت الواقعة، فأستجمعت مزيداً من المعلومات عن الشريك. هو ملك السجاد العجمي ليس في حلب بل في سائر البلاد. من أبرز الشخصيات في مجلس إدارة غرفة التجارة وهكذا كانت (الفاتحة) التي قرأها أصحاب القرار في دارنا، حدث الجرائد والمجالس، وهي التي رفعت مستوى اللغو عند نساء المدينة، فالرجل المهم قد اختار أكثر الفتيات حظاً في المدينة زوجاً له. فقال والدي إن علي لبس خرزة زرقاء خوفاً من عين الحسود. ولم أكن أعرف الكثير عن السجاد العجمي الذي فرشت غرف الفيلا بمراتها بقطعٍ منه، فتمرّغ أخوتي

على نعومته فبدا كل شيء في الدار وكأنه يضيف إلى نقوش السجادات الوثيرة ألوانا من الفرح لم يشملني، بل اقتصر على الزوار من الأهل والمهنئين. هتف الشايط مرة وهو يشير إلى قطعة فرشت أمام الفراش «هل تدرين أن والد الشاه نفسه (شاه ايران) كان يملك القطعة المثيلة لها».

عادت ليلى إلى الأوراق مبتسمة، وكأنها طوت صفحة من حكاية مسلية، تقترح أن تكون واحدة منها وثيقة إشارة منها إلى نواة لوثائق سرية تجمع في آخر المذكرات.

بدت وكأنها تملك خبرة سابقة في معرفة محتويات تلك الأوراق والكراسات والمصنفات والعلب التي بدت تحرص على محتوياتها. عرفت أن بعض الكتب كانت قد صدرت عن الحاكم الفرنسي وأخرى صدرت عن رجال غاب معظمهم عن الحياة، وكانت بعض الأوراق بلغات أجنبية مختلفة ميزت إحداها موقعه من قبل مسؤول بريطاني كبير. قلت متسائلاً لنفسي «وما نفعي أنا مادامت ليلى تعرف كيف سيكون الأمر؟»، لكنها تطلعت إلي فجأة لتقول «لم تسألني بعد كيف كان الزواج؟»، فلبثت حائراً تنبىء عيناي برغبة في أن تتابع حديثها.

وشهدت المدينة حدثاً لايمكن نسيانه. كان الاحتفال محتشداً في حديقة القصر الذي سماه «فيلا كهرمان». لا أنسى العلبة التي وزعت على الحشد الذي ضمّ رجال سلطة وتجاراً كباراً وصناعيين ينمون، بالإضافة إلى السفير الإيراني الذي كان نجم الحفل والأبرز بين آخرين يمثلون سفارات دول وهيئات دبلوماسية متباينة. كما أن عدداً من تجار إيران قدموا خصيصاً لحضور العرس الكبير. كانت العلبة تضم في مخملها الأرجواني قطعة ذهبية تفوق حجم الليرة الذهبية الانكليزية، وقد ضرب رأس الشايط على وجه بأنفه الكبير وعينيه الصقريتين، وعلى الوجه الآخر رأس امرأة لها شبه بي، وقد تجمع شعرها على قمة الرأس كتاج ملكة أسطورية يُبرز الخدان ليصبح النقش وكأنه نسخة من (نفرتيتي)، بينما كنت في ذلك الوقت متوردة الوجه ممتلئة الخدين، فعرفت أن زوجي يرغب في أن أصبح نحيلة. وقد سمعت بعد أيام أن زوجته المطلقة كانت بدينة، وأنه يحلم بي رقيقة كنفرتيتي، فكانت الإشارة واضحة في أن أتحول إلى امرأة أخرى. وهكذا وجدت نفسي أتبع رجيماً قاسياً لم ينفع في أن تكون له جدوى.

قلت ضاحكاً:

- ولكنك لم تتغيري منذ عرفتك في البداية!

- هو قدري مهما كانتَ الأوامر .

هكذا قالت، ومن ثم تابعت تحكي :

كان زوجي آنذاك رفيقاً بأهلي، فوجد لأهلي أعمالاً مربحة، وأشرف على تشييع والدي في جنازة مهيبة تليق بكبار رجال الأمن. لا أنكر أنه استخدم خبراته الطويلة في إحاطتي بالحب والاهتمام معوضاً لي ضيق الأيام الماضية، فعرفت الأسفار الكثيرة التي كان يصطحبني فيها معه إلى ايران حيث كبار عملائه، كذلك ذهبت معه إلى دول آسيوية كثيرة، طشقند وبكين وغيرها. وبالرغم من سماحه لي باستكمال دراستي في الجامعة، فقد جاءت تلك الأسفار لتمنع ذلك الحلم عن أن يتحقق.

قلت معلقاً «كانت حياة مليئة»، فابتسمت بحرارة «هي حياة مليئة بالمفاجآت الأسطورية»، وتابعت وكأنها تسرد حكاية سمعت عنها :

في (كاشان) كان المنزل الريفي الذي يتردد عليه حلماً تتطلع الزوجة إليه بعد أن سمعت عنه من الأعوان الأشياء الكثيرة. وقال الشايط عندما توجهنا إليه «أليست جنة الله في أرضه». وفي ذلك المنزل الذي كان واحداً من منازل امتلكها في إيران،

ستكتشف الزوجة أنه مقر لزواج المتعة الذي كان الشايط يمارسه بانتظام. ولم ينكر الشايط تلك الحقيقة وهو يقول بثقة «وما ملكت أيمانكم»، فأذهلتها صراحته وهو يقرّ بها متفاخراً، وتعالى الغضب صراخاً بين الزوجين، وقد حسمه الشايط قائلاً «احمدي الله أنك مازلت على ذمتي بالرغم من عقمك. أين الأولاد الذين سيرثون مجدي وأملاكي من بعدي؟».

أضافت ليلى بعد لحظات وهي تعود إلى الأوراق «ومع ذلك كان طيباً معي، وقد أبلغ مدير أعماله الحلبي أنه سيتكفل بمعيشتي ما دمت وحيدة ولست على ذمة أحد». كان الطلاق بارداً مثل لحظة الخطوبة الأولى، والذي زادني استغراباً أن الشايط لم يكن ينجب من قبل بالرغم من تكرار زواجه.

- ١٤ -

استيقظ في الصباح التالي باكراً على إيقاع العرق البارد الذي يبدو أنّ حلم الليلة الماضية قد كان نبعاً لتوليده. جلس شاهد على مكتبه يسجل في دفتر المنامات بيد مرتعشة:

سلكت خطاً متدرجاً، فالسلالم كانت طويلة وتزداد ارتفاعاً كلما قطعت جانباً منها. كنت أتجه إلى غرفة في مركز حكومي كبير، وفي نيتي أن أتقدم بعريضة احتجاج على توقيف المرأة التي يفترض أن تكون زوجتي، وإن كنت لم أعرفها بعد. كنت أرتفع كلما خطوت والأدراج اللامعة تبتعد عني، فكأن جسدي يتسلق منارة أو برجاً ليس له نهاية.

كان المركز العالي خالياً من الناس، هادئاً إلاّ من صمت مريب. أين ذهب المسؤولون وأين المراجعون؟. سمعت الببغاء من زاوية غير مرئية ينادي بصوت فصيح «شاهد... شاهد... توقف» فازددت إصراراً على المضي متجهاً إلى الطابق الذي بدأ في الظهور لي وكأنه غرفة وحيدة عند نهاية

السلالم كانت بانتظاري. بدت لي وكأنها خرجت لتوها من سحابة ضباب ثقيل، ثم بات المشهد صافياً. تقدمت منها بحرص شديد لأنقر الباب والذي يكاد لا يتسع لقامتي، فانهار الخشب المهترىء على الأرض كتراب خلفه النمل المتوحش، فبات مشهد الغرفة الواسعة واضحاً أمامي. مساحة عارية يدخلها الضوء الهلامي من كوة صغيرة حفَرت في السقف حفُرة. وكان السقف وكأنه جذوع أشجار جمعها الطين قد ظهر وحشياً لابد أن الوطاويط تملأه بأعشاشها. ومع ذلك كان المكان هادئاً ونظيفاً وتحتمي بجداره المتصدر امرأة لُفَّ جسدها بقماش وكأنه علم لدولة لا أعرف عنها شيئاً. كانت المرأة سمراء فاقتربت منها بهدوء فتحول لون الوجه إلى بياض مشع، وانسدل القماش على جسد بض وكأنه السمكة ممتلئة دون حراشف. كان الثديان ينزان حليباً فهتفت بشوق «ارويني من مائك الأبيض». وجاءني صوت اختراق الكوة مع ضياء شمس قوية «خذ زوجتك فقد انتهينا منها». كنت أتطلع إلى المرأة التي لم أشاهدها من قبل وكانت هي تفيض حناناً ودعوة بالرغم من استسلامها، وكنت كلما اقتربت منها خطوة ابتعدت عني خطوتين، وكأني أتراجع إلى الوراء إذ أتقدم، وفي كل مرة كانت تتشكل من جديد وكأنها امرأة أخرى،

وكأن نساء الدنيا يتجمعون فيها . سمراء ... بيضاء ... مكتنزة ... ممشوقة ... ضامرة البطن، امرأة من البادية ... جبلية ... امرأة خرجت لتوها من ماء الفرات ونقاط الماء تتجمع على جسدها ماسات تبرق ... فلاحة من جبل الأكراد بقبعتها العالية كناقوس، امرأة مريمية تشع طهارة ... أنثى تضرع لله وقد تحول جلدها إلى رداء للصلاة فتشع معالم جسدها بالنقاء .

- لم تركتني ... انزلني من أسري وعذابي .

هكذا جاءني صوتها ضعيفاً، ثم ما لبث أن اشتد لتردد الغرفة الخالية صدى ندائها قوياً كأنه يمر عبر أسلاك مكبرات الصوت المنتشرة في كل زاوية، فركضت كالريح نحوها ولكن كل شيء بات ساكناً يردد صوت الريح المتسرب عبر الكوة والشقوق المنتشرة في الجدران، ولم يكن هناك أحد سواي، فبحثت عنها متلفتاً عبر الجهات الأربع لأجد الأسوار التي تحولت الجدران إليها وقد ضاقت علي، كأنها تزحف لسحقي، فصرخت أطلب العون من الله .

وما أن انتهيت من تدوين الحلم حتى عاودني من جديد وكأنه حقيقة، فأغمضت مستسلماً أكرر العون برجاء يائس

لا يملك حلاً. ثم صحوت للمرة الثانية فإذا أنا مازلت في غرفتي أضع القلم جانباً وأفكر أستذكر من جديد ذلك الحلم. وكان الخلاص منه في ارتداء ملابسي والهرولة إلى خارج الدار غير سائل عن قطي الماكر أو طيري الفصيح. كنت أهرب إلى مقهى القلعة بحثاً عن أنيس.

وكان الوقت مبكراً، فبت وحيداً مع الحاج صبحي الذي استقبلني كعادته بفنجان القهوة والترحيب المستغرب، فقد كان قدومي في مثل ذلك الوقت من اليوم غير مألوف لديه، قال لي «هنا تستطيع في هذا الهدوء، تستطيع أن تفكر».

لبثت صامتاً بينما صاحب المقهى يقول «هل كانت ليلة عمل فلم تنم جيداً؟» فاستمر صمتي، إذا ذاك قام إلى الطرف الآخر يرحب بزبون مقطب فقلت لنفسي «لابد أنه يفكر في حلمه». وعندما عاد إليّ الحاج صبحي قلت له «هل تشاهد الأحلام ليلاً؟» فضحك قائلاً «أنام كالطفل فلا أرى شيئاً»، ثم قال «كيف يمكن للإنسان المتعب أن يحلم ليلاً!»

طفت بناظري في الشارع الذي مازالت الحركة فيه قليلة والقلعة تطل عليه تتأمل مثلي، فشعرت بالسكينة تنزل علي ببطء، حتى قلت لجليسي «المنامات نعمة أم نقمة؟» فعاد إلى

ابتسامته الطيبة وكأنه يشفق على من يعيش حياة ثانية في نومه، وقال «ألا يكفيني ما أنا فيه في ضوء النهار أو تحت أنوار الكهرباء ليلاً»، فتطلعت إليه لا أملك أي تعليق.

عند سور البناء الأثري الذي تحول إلى مشفى ثم إلى إدارة صحية، اعتاد رجل على عرض كتبه المنتشرة على الرصيف. تركت مقعدي فجأة وقفزت مسرعاً إليه بين تعجب صاحب المقهى من سلوكي المضطرب ومن فنجان القهوة الذي لم أمسّه بعد. جعلت أقلب في الكتب المعروضة، فقال البائع وكان يستند بظهره إلى السور الحجري باسترخاء الرضى عن ما يدور حوله» هل تبحث عن كتاب معين؟». كانت ثمة كتب دينية ونسخ قديمة من روايات مستهلكة وطبعات شعبية لبعض السير كالهلالية، وكتب أشعار لم أسمع بأصحابها، فقلت متسائلاً «أبحث عن كتاب لتفسير الأحلام، هل عندك؟» فقال البائع دون أن يتحرك «كان تفسير ابن سيرين عندي، واشتراه شيخ معمم منذ فترة» ثم أضاف وقد وقف على قدميه الهزيلتين متقدماً مني قليلاً «هل تريد أن أحضر نسخة لك غداً»، شكرته وعدت أدراجي إلى مكاني في المقهى ليقول لي صاحبه الذي عاد إلي «لن تجد ما تريد عند ذاك البائع» ثم تساءل بجدية «ماذا كنت تريد منه؟»، فلبثت خجلاً من قول شيء، فالناس

عـادة يلجـؤون إلـي مـتـســائلين، وأنـا مـازلت أملك أسـئلة مازالت تبحث عن جواب.

هل الحلم هو جزء من حقيقة الواقع يعبر عنه برموز خاصة تحتاج إلى تفسير؟

أم أن الحلم هو العـقل البـاطن يظهـر مـا لايمكـن أن يكون، فيكون مختبئاً في ثنايا الـروح؟ هـل الحلـم هـو تفسير متنبىء لما قد يحدث، أم أنه تعبير عن خيبة الأمـل وفشل الطموح؟ بمعنى أدق هـل أن ليلى مـازالـت بـذرة فـشل قـديم نبـتت فـجـأة فـي أرض عطشى؟

قال الحاج صبحي وهو يعود حامـلاً النرجيلة الصباحية التي فضل أن يدخنها برفقتي «هل تعرف شيئاً يا أستاذ شـاهد، إني معجب بإخلاصك لزوجتك المسافرة» ثم ابتسم مكمـلاً «أعلم مقدار تحرش الصبايا بك، فأنت مـازلت تجتذب النسـاء حتى الآن». كان فـخه الذي أعـده للإيقاع بأسـراري جاهزاً للبـوح بكل شيء. كنت أحـتـاج إلى صـديق يـحـمل عني عـذابات النفس، وفتحت لي ابتسامة الحاج نافذة للدخول منها، لكن ضـجـة الشارع ابتدأت، فقصر الحكومة القريب يجتذب بعد الثامنة المسؤولين والمراجعين، وقد اشتعلت الحركة بالتصاعد، فمنعتني مراقبة السيارات المتهافتة عـن الحديث الـذي كـدت

أن أدلي بــه، ولنقل الاعتـراف الـذي حـسبت أنـي سـأنقله إلــى جليـسي. وهكـذا قـلـت لـــه «أليس الإخـلاص للأحبـة هـو جوهر الوفاء للنفس؟» فبدا لي وكأني أحكي أحجية لم يستطع أن يلتقط فحواها، فهز برأسه موافقاً «وهل تقول شيئاً غير صحيح!».

فكـرت فـجـأة في قصـر الحكومـة، شيء يشـبه ذلك المبنى الذي رأيته في الحـلـم، فـلاحق الـرجل نظراتي المتفحصة وهو يقـول «بناء جـمـيل، أليس كذلك؟»، وكــان اضطرابي يـعـود ليشمل جسدي وروحي، فقمت واقفاً دون إشـارة، ومضـيت مبتعداً تلاحقني نظرات الحاج صبحي الداعية للبقـاء، والتي ستستسلم مستغربة لانصرافي المفاجىء.

كنت أمـشي بـخطوات منتظمــة على الكـورنيش الذي يزنر القلعة، لأدور حولها مرتين، فـمضـت ساعة قبل أن أعـود إلى الدار. ثم لم أجد نفسي إلاّ وأنا أقـود السيارة متجهاً دون تفكير إلى بيت ليلى أو بالأحرى بيت سعد الدين الجابر، وكأني على موعد مسبق، بالرغم من أن زياراتي كانت تقتصر على المساء.

هل لقائي بليلى هو جزء من الحلم، وهل سيكون كل شيء مجرد سراب. قلت لنفسي وأنا أصل إلى هناك « ولكن الرجل حقيقة قائمة!».

- ١٥ -

دار الجابر ساكنة كعادتها، وتلفها الأعشاب النامية في المساحات التي تحيط بها من كل جانب. قرعت الباب فلم ألقَ رداً بالرغم من انتظار طويل، فدرت حول المبنى أحاول عبر النوافذ الأرضية أن ألمح حركة أو ظل أحد، فتملكتني الدهشة من عدم صدور أية اشارة أو صوت يشي بوجود الحارس أو ليلى. عاودت قرع الجرس، ثم استخدمت يدي في تكرار قرع الباب. وراودتني فكرة شيطانية في أن أهل الدار هجروها لسبب ما، فتملكني خوف الطفل وهو يبحث عن أهله الذين ينتظرونه، ولكنني سرعان ما استبعدت الفكرة فالرجل مريض ولايمكن أن ينتقل من غرفته، وأن ليلى والحارس مازالا يغطان في النوم بعد ليلة ربما كانت صعبة.

لم أتوقف عن قرع الباب، إذ ذاك قلت لنفسي لابد أنهم ذهبوا جميعاً في حالة إسعاف طارئة. وشجعني صمت الدار على التفكير في المكان الذي يمكن أن يكونوا قد تحركوا نحوه،

آنذاك استعدت اسم الطبيب الذي كان يتردد على الجابر مشرفاً على صحته .

وهكذا عدت إلى المدينة بسرعة جنونية متجهاً إلى عيادة الطبيب التي تذكرت موقعها ، فلم أقابل فيها سوى الممرضة التي قالت لي ببساطة إن الدكتور محمود قد أخبرها منذ قليل أنه في المشفى باقٍ لعلاج حالة طارئة منذ مساء الأمس . ولم تستطع الممرضة أن تفيدني بمعلومات أكثر عن الحالة الطارئة ، وإن كانت قد أفصحت عن عنوان المشفى .

دخل الجابر في إغماء طويل ، جعل ليلى تستدعي طبيبه المشرف في منتصف الليل لنقله إلى المشفى ، وهناك على باب غرفة العناية المشددة كانت ليلى القلقة تروح وتجيء ليتبعها الحارس كهيكل عظمي زاحف وقد بدا عليه أنه فقد الأمل لاينفعه الدعاء المستمر في دفع حركته المتهالكة لإعطاء بريق أمل .

فوجئت ليلى بحضوري فاختلط في وجهها الاستغراب بنوع من الفرح ، ولكنها شدت على يدي الممتدة لفعل شيء فكان الذعر المرتعش ينتقل إليّ من ذراعها ، وما لبثت أن تركتها لتتابع خطواتها القلقة كمن دخل مرحلة ضياع لايعرف له

نهاية. لم أحاول أن أشدّ من عزمها بل توجهت سائلاً عن الدكتور محمود الذي كان في غرفة الأطباء هادئاً يجلس وحيداً وكأنه ينتظر شيئاً ما. قال لي الطبيب «بذلنا كل ما بوسعنا، لكن السكتة الدماغية بحاجة إلى الانتظار، وعناية الله هي الوحيدة التي نتطلع إليها الآن». هتفت بحرقة «ألا يمكن أن نفعل شيئاً... أرجوك»، فتطلع إلي الطبيب الذي كان في منتصف العمر جامداً كتمثال النبوءة القاسية «ما عليك إلاّ أن تدعو معنا أن يترفق الله به»، فجمدت حيث أقف لأرتدّ على عقبي.

عدت إلى ليلى التي لم تكن تعرف الاستقرار، وإن كان هدوءها يقطع نياط القلب. طلبت منها أن تعود إلى غرفة المريض الفارغة طلباً للراحة التي استوجبتها ساعات الانتظار الطويل فامتثلت كصبية غلب على أمرها. قالت ليلى يتملكها الخوف من الشيء القادم «هل تعتقد أن الانتظار يمنحنا الأمل؟». في الغرفة التي أسدلت ستائرها أفلتت ليلى ببكاء مر، ثم تمتمت بعد حين «لا يليق به سوى الحياة»، وكنت أريد أن أهتف مواسياً «مادمت معك فلن تكوني وحيدة بعد الآن»، لكن جلال الموقف جعلني ألبث ساكناً استمع بإكبار إلى نشيجها الذي استمر طويلاً.

قالت ليلى بعد أن استعادت قوتها الهادئة:

- «هل تعتقد أنه من الأفضل نقله إلى مشفى آخر... دمشق... بيروت؟».

ولكنها أعقبت بعد لحظات:

- قال لي الدكتور محمود أن في نقله خطورة.

وبعد صمت طويل جعلت ليلى تتكلم: كنت أقرأ له في كتاب «تاريخ سورية الوطني» بالقرب من سريره حيث أفعل دوماً، وكان يعلق على ما يسمع بين حين وآخر، وكأنه يصحح بعض المعلومات التي جاءت في الكتاب أو يضيف إليها من عنده. كنت سعيدة بآلية عقله التي تناقش كل شيء باتزان وكأنه مازال في حيوية الشباب. كانت هناك بعض الإشارات الجغرافية، فإذ به يعلق عليها مضيفاً الملاحظات الدقيقة، وكأنه يعرف الجغرافيا شبراً شبراً، وقال إن المؤلف كتب عن نهر العاصي والتاريخ الذي مرّ على ضفتيه، دون أن يرافقه من نبعه إلى مصبه، واعتقد أنه أضاع متعة تاريخية المناطق التي يخترقها النهر.

أضافت ليلى تزيد من معرفتي بالجابر، إن متعتها كانت كبيرة دوماً، وهي تقوم بدور القارئة، فهو مستمع من طراز

فريد، يعرف أشياء كثيرة، وقد تحولت الحياة عنده إلى صفحة مقروءة، ففرش لي أرضية التاريخ والجغرافيا لتكون بساطاً واضحاً أمام باصري.

هل أقول إنه قد علمني في سنوات قليلة أكثر مما تعلمته في حياتي كلها. ومعه استعدت معلوماتي القانونية التي ابتدأت بالاختفاء تحت رماد الجمر الذي عشقه بين مدّة وأخرى. كنت أكاد أكمل دراستي في الجامعة، لكن المعرفة أفضل من الشهادة، لذا شجعني على القراءة اليومية، وكأنما كانت الهدف من زواجنا. هل أقول إنه أكثر الرجال رقة! أستطيع أن أقول عنه الكثير الكثير، لكن عليّ الآن أن استبدل كل شيء بالدعاء له. ورجتني فجأة أن أشاركها الدعاء، فهززت برأسي موافقاً، بعد لحظات قالت ليلى بصوت مرتجف «هل تعرف أنني البارحة عندما طويت الكتاب بعد أن حسبته نائماً، حاولت أن أتسلل إلى غرفتي لكنني وأنا أحاول أن ألامس وجهه، اكتشفت أنه دخل في غيبوبة. لم يخطر ببالي سواك أتصل به مستنجدة، هتفت قبل أن تكمل ليتك فعلت» ولكنها قالت «خفت أن أسبب لك إزعاجاً فالوقت كان متأخراً».

كانت سعادتي وهي تدلي بتصريح لم أتوقعه منها، تعادل السعادة التي هبطت علي وأنا أعثر عليها مصادفة بعد كل تلك

السنوات. وكادت مشاعري الطاغية تدفعني إلى مكاشفة ولو كانت من طرفٍ واحد، لولا انطلاقها من جديد كي تعود إلى غرفة العناية المشددة.

تمر الدقائق وكأنها الساعات، وكان الحارس كما هو، يقيس بساقيه الواهنتين مساحة الصالة لا يعرف الهدوء أو الراحة، بينما عيناه تلتصقان بين لحظة وأخرى بباب غرفة العناية، وكأنه يتوقع خروج الجابر في أية لحظة فيكون الأول في احتضانه. وفجأة اكتشف أننا نحن الثلاثة من ينتظر بقلق أخبار المريض، وأن لاأحد آخر يفعل ذلك. أهو قدر رجل كالجابر في الوحدة والإهمال؟ قالت ليلى أن إخوتها مسافرون جميعاً وإن مفهوم الصداقة لم يطرق دارهم من قبل، كانت تتمنى لو أن أحداً يقف معنا فالجابر يستحق المحبين الذين يذكي عواطفهم قلقٌ على حياته. بعد مدّة قالت ليلى ونحن نجلس في حديقة المشفى «سيعود إلى بيته، وسنتابع عملنا في أوراقه. ألسنا بحاجة إلى ملاحظاته». ولقد وعدت نفسها أمام الله أنها ستعمل بكل جهدها كي تحفظ له ماضيه.

ومرت أيام ثلاثة، كان الجابر فيها يتصل بأنابيب وأشرطة تصرّ على إعادته إلينا. وتناوبنا أنا وليلى القليل من النوم والراحة، وكان الحارس يصر على إغفاءة قصيرة على مقعد

أمـام الغـرفـة. كـانت في مـدّة الانتظار القـاسيـة تـلك، فـرصـة لاكتشف أشياء كثيرة في ليلى، أو لنقل إعادة اكتشاف ليلى، فجمالها الفاتن الذي مازالت تحتفظ به يعادل الوفاء الذي بات نادراً في هذه الأيام، كذلك جديتها في الاستزادة من المعرفة التي تباهت بها خلال حياتها القصيرة مع الجابر الذي لم يبخل يوماً عليها في فتح النوافذ أمامها. وتكشفت لي صورة محبتها لسورية وهي تتحدث فيها وتدافع عنها وكأنها المسؤولة عنها، فكشفت عيباً عندي تجلى في الإهمال أو في النسيان. كنت أردد في سري كلمات أغنية سودانية تقول فيها المغنية عن حبيبها «حبك للناس خلاني أحبك تاني».

لا أنكر أني في تلك الأيام العصيبة كنت أريد أن أمتلك شيئاً من يقين أخي التوأم، فقد فكرت فيه طويلاً، فهو سيواجه حتماً مثل تلك الأحوال بإيمان عميق، لكن حزني غلب عليه إحساسي بأن الغيبوبة لن تنجيه، فهل داخلتني مشاعر سيئة في أن تتحرر ليلى من أي ارتباط كي يكر الزمن عائداً إلى ما كان عليه من بذرة أمل أرجو أن تتفتح عن علاقة ستكون الأجمل في حياتي، إن لم تكن طوق النجاة لجاهل في السباحة عبر مياه بحر متسع.

واكتشفت شيئاً في نفسي وأنا أحادث زوجتي على الهاتف بعد انقطاع دام أشهراً، فلم أكن سعيداً كالسابق لسماع صوتها، ولم أكرر عليها شوقي إليها كما كان يحدث في كل حديث معها. قلت لها إنه لابأس من البقاء بقرب ولدها وحفيدها كما تشاء. ولم أشعر بأي عاطفة عندما انتهت المكالمة لأعود إلى المشفى مسرعاً، ولأكتشف أن أموراً جديدة ستجد في الساعات المقبلة.

كنا ننتظر عند باب غرفة العناية خروج الدكتور محمود مع عدد من الأطباء يستهلك وجودهم مع الجابر أعصابنا، فتتصاعد الابتهالات والأدعية، وتنشف العيون الراجية المتطلعة إلى إطلالة أحد يحمل خبراً متفائلاً. وكان كل شيء قد انتهى مع طلوع الفجر، ليُعلن خبر وفاة سعد الدين الجابر أخيراً، فجلست ليلى على مقعد خشبي تغطي وجهها بيديها، ولم يكن يسمع في المشفى آنذاك سوى النحيب.

- ١٦ -

اقتصر يوم العزاء على رجال غرباء، عرفتهم على قلتهم من أهل السلطة التي توطن بعض من أهلها في المنطقة البعيدة. وتأسف الحارس العجوز أن أحداً من الرفاق القدامى لم يحضر، وقال معلقاً إن عذرهم واضح في موت معظمهم، ولكن اللوم يقع على أبنائهم الذين تجاهلوا تقاليد لم تفرق فيها حلب بين خصم وصديق، فهم لايمكن أن يكونوا قد تجاهلوا أوراق النعي التي أشرفت عليها بنفسي لتعلق في كافة أحياء ومناطق المدينة.

ويبدو أنّ العادات التي مازال بعضها قائماً، هي التي قادت الجيران كي يأتي بعضهم إلى مجلس العزاء، وقد يكون الفضول دفعهم إلى ذلك، فدار الجابر لم يزرها أحد من قبل، وكان في بنائها الذي يستعيد العمارة القديمة المعروفة في المدينة، دافع لاكتشافها.

كنت الوحيد في صدر الصالة يمثل الفقيد، وكان الحارس يقف عند الباب يدلّ المعزين على المقاعد التي لم تمتلأ بالرغم

من كثرتها، بينما بقيت ليلى في الطابق العلوي وحيدة تتابع ذرف الدموع التي لن تجف إلاّ بعد مدة. ولم تشتك من وحدتها خلال يومي المراسم، لأنها ما لبثت أن أعلنت في اليوم الثالث أن العمل يجب أن يتابع بعد عودتنا من زيارة القبر الذي وجدنا له مكانا في (الصالحين) بصعوبة، حيث أجداده ينتظرونه.

لم يكن هناك من حديث قد دار بين أحد من المعزين حول الفقيد، وبدا أن الجميع لا يعرفون شيئاً عنه حتى شكله، وكان هناك بين الحين والحين تعليق على حكمة الموت أو على نعمة الله في تقنين الأعمار الحكيمة. وينتقل الحديث أحياناً إلى الأمور العامة، فمنهم من تحدث عن توسع المدينة وتطورها، ومنهم من تحدث عن أهمية بقاء سورية صامدة في وجه المؤمرات. كانت وتيرة الكلام ذاك ترتفع عندما يستريح الشيخ القارىء للقرآن، وتخف عندما يعود إلى تلاوته. ويتطور الحديث إلى التعليم فيتحدث أحدهم عن إيجاد مقاعد للدراسة لكل الطلاب في جميع المراحل، بينما يفوق تزايد السكان قدرة الحكومة التي تتخطى المشكلة بالحزم والإدارة. ويشيد أحدهم بتوسع المدينة في كل اتجاه، وتوسع شبكات الطرقات، ويشير واحد إلى حاجة المنطقة السكنية الجديدة هذه إلى بناء

جامع كبير، فالمسجد الذي بناه أهل القرية المجاورة ما عاد يستوعب أعداد المصلين المتزايد، ثم اشتدت الحماسة عند أحدهم فسمى قطعاً من الأراضي التي مازالت غير مشغولة ويزرع فيها الشعير البري لصالح قطعان الغنم المتجولة، وهي الأصلح لبناء جامع لائق. كانت المنطقة الغربية الواسعة تفتقر أيضاً إلى مدرسة، فلم يأتِ أحد على ذكر أهميتها.

سألني رجل يملأ ثيابه الأنيقة وأنا أقف عند المدخل أقوم بمراسم التوديع «لابد أن الوالد رحمه الله أحسن اختيار الأرض التي شيد عليها هذه الدار الجميلة «فكان ردي انعكاسياً إنه كان في مقام الوالد. أحسست بشيء من الغريزة أن رغبة ما تقوم في نفسه أو عند غيره بامتلاك أرض هذه الدار لصالح الجامع الذي قام الحديث عنه، بالرغم من عشرات الدونمات الخالية من حوله، فانتعشت في ذهني فكرة تحويل الطابق الأرضي إلى مكان كمتحف تجمع فيه ذكريات عهد مضى كي يؤكد على استمرار احترام جميع الذين أعطوا شيئاً للبلد مع اختلاف مبادئهم وانتماءاتهم وأجيالهم، وليؤكد على أنّ البلد يمكن أن تنتج محبين أو عاشقين لها. فكرت في حفظ ذاكرة المدينة التي تضم وثائق وأغراضاً شخصية تثير عند الأجيال الجديدة تعلقهم بالبلد، بعد أن بدأت ملامح النسيان والضياع تنتشر بصمت بين

صفوف الناس وبخاصة الشباب منهم. ثم صحوت فجأة لنفسي لأتذكر ليلى التي مازالت الوريثة الوحيدة للفقيد الراحل، وأنها وحدها تملك القرار، فاستبعدت خيالاتي.

عندما عدنا من زيارة الرجل في مقره الأخير، قلت لليلى أني أشفق الآن على وحدتها، فإذا بها تقول بحسم لم أسمع مثله بحياتي «لست وحيدة»، وكأنها ترفض أي عطف أو إشفاق عليها، وأنها تقطع الطريق على أية أمنية كدت أن أعلن عنها. وهكذا عاد ركن العمل إلى ما كان عليه بعد أن استبدلت الطاولة بمكتب خشبي، وكأن الإشارة كانت واضحة بأن عملنا المشترك سيستمر بالرغم من كل الظروف القاسية. فاستسلمت لها نتابع الفرز والقراءة وكأننا شريكان في بحث علمي طويل.

تألق وجه ليلى بفرح كمن اكتشف كنزاً وهي تلوح بورقة مطبوعة على الآلة الكاتبة، جعلت تقول «رسالة من الجنرال الفرنسي حاكم حلب، كل حلب، إلى سعد الدين الجابر».

أضافت بانتصار «تحذير مبطن من المعتدي لأصحاب الحق، يحذر الجابر من تنظيم مظاهرة شعبية من كل الفئات تخرج هاتفة ضد الاستعمار». كنت اقرأ ما جاء في الرسالة التهديدية

أن الجنرال يثق بحكمة الجابر في السيطرة على الهدوء الذي يخدم الطرفين، وأن النتائج ستكون وخيمة إذا خرجت إلى الشارع، وأن الجابر سيكون المسؤول مباشرة أمامه.

تساءلت وأنا انتهي من قراءة الكتاب الذي كتب بلغتين «وهل استجاب الجابر إلى تهديده المبطن؟»، فقالت ليلى بثقة «لابد أن الوثائق ستكشف عن صلابة الجابر».

تتعاقب الأيام، ويستغرقنا العمل الدؤوب، نقرأ كل ورقة وندقق في أية حاشية سجلها الجابر بخطه. كانت أحياناً قوة ملاحظاته على من يعمل في السياسة في زمنه، تمنحه نوعاً من المصداقية التي تبرر اندفاعنا في الإخلاص لثروته المخزونة في تلك الوثائق. لم يكن يفرق بين الجشعين والمستغلين وبين أية ظاهرة عداء من الخارج. كان شجاعاً. قالت ليلى ذات مرة وقد عادت أشكال من الطمأنينة إلى روحها:

كنا نجلس ذات ليلة تحت ضوء القمر الذي غمر البرية وأزهار الحديقة التي كانت آنذاك تحيط بنا. اجتمعنا على حب الأزهار. كان يتحدث بهدوء وثقة عن الأيام القادمة، فكأنه يراهن على استمرار الحياة، فغمرني تفاؤله بالسعادة، وعلمت أن رهاني على زواجي الأخير كان رابحاً. كانت قوة إرادته

تتجاوز سنين عمره، وتتألق قوة في كلماته. مازلت أذكر نباح الكلاب يأتي من بعيد فيقول إن الله يسخر دوماً من يحرسنا، فكأن الجابر لم يعان يوماً لتزعجه أية ضوضاء. وقال لي سعد الدين إنه يريدني أن أعرف أن العمل السياسي ومن بعده العزلة في المعتقل لم تعطه أية فرصة ليعرف شيئاً عن المرأة. وهكذا كنت الوحيدة في حياته، لهذا فهو يريدني أن أعرف كل شيء عنه، فأنا الشريكة الحقيقية التي اطمأن إليها. هل تعرفين ما هو الحب عندي؟ هو الطمأنينة. ويقول بعد قليل إني يجب أن أدرك تماماً أنه غير ناقم على أولئك الذين قطعوا عليه مسيرة عمله، فلقد انتهى زماننا. قال إن دوره قد انتهى ليبدأ دور غيره، وتلك هي سنة الحياة، إذ لايمكن أن أستمر إلى مالا نهاية. لا أخاف أنهم ماداموا يفكرون بأمر الناس ويحمون الحدود من أي عدوان، وإذا كانوا يعملون من أجل المستقبل فلم لا!. لم أستسلم ولم أضعف ولكنني أفعل بعقل. وقد لا يكون تأييدي نافعاً، لكنه يجعلني متوازناً مع نفسي، وهذا هو مطلبي الكبير، ونظر إلي بحنان أبوي ليقول إنني مثله مررت بخط متعرج، أفلا تكون هي الطمأنينة أن نقف من الواقع موقف العاقل؟

قالت ليلى وهي تمشي في الركن بخطوات محسوبة «أريد أن أضيف إلى الأوراق التي تركها لنا، أهم أقواله لي، أو تلك

التي تتعلق برؤيته الجديدة للحياة والتي أعتقد جازمة أنها كانت امتداداً لفكره السابق». أضافت بتصميم «قد أكون عاجزة عن تذكر كل شيء، لكن جلساتنا في المستقبل ستسفر عن كشف ما اختبأ في الذاكرة».

ألا يحق لي أن أتفاءل. وكنت أعلل نفسي بالوعد المبطن الذي أعلنت عنه ليلى في أن لقاءاتنا ستستمر مادامت الذاكرة تحمل أخباراً. فاشتعلت الحماسة بداخلي وهتفت بسعادة مكشوفة «سأكون معك دوماً»، فابتسمت ليلى وكأنها تظهر امتنانها.

وستمر الأيام، ويعود الهدوء إلى دار الجابر، وكأنه مازال بانتظارنا في طابقه العلوي يبارك جهودنا. وتتنامى أمام عيوننا النتائج المثمرة ونحن ننجز ساعة بعد ساعة تسجيل الوثائق وتدقيقها ومراجعة ما يمكن أن يكون بين السطور، فإذا بتلك الفرصة نادرة أمامي كي تزداد معرفتي بتاريخ البلاد، فتتعمق نظرتي للأمور، ويتمازج تعلقي بليلى بإحساسي الكبير بالوطن الذي نعيش فيه. هل أقول أني أدركت الآن أن الحب أو ربما التعلق بشيء ما أو ربما الإعجاب، لا يكتمل إلاّ بالمعرفة؟ أصبحت سهلاً منفتحاً، بعد أن كانت التضاريس تسد علي الرؤية.

- ١٧ -

كان التواصل مرضياً، وكان يستمر أحياناً عندما أعود إلى بيتي عبر الهاتف، تهتف لي أو أفعل أنا من أجل كلمة أو فكرة للاستفسار عنها، أو حادثة مرت علينا في الوثائق لم نتفق في لقاءاتنا على تحديدها بشكل سليم. تجاوزت مرة الحديث عن العمل، لأسألها على الهاتف «لم أعرف بعد ما الذي حدث بعد فراقك عن الشايط»، فردت بثقة مختصرة « لم تنته الحياة من بعده».

ويظهر الشيخ في حياة ليلى فجأة. أعترف بأني كنت بعد افتراقي عن الشايط مصابة بداء اليأس. كنت وحيدة لا قريب ولا صديق يقف إلى جانبي، فإخوتي الذين أغراهم المال كانوا قد انتشروا في بلاد كثيرة يعملون لصالح زوجي السابق، فالشايط استخدمهم فنسوا أختهم. لم يكن لي أحد أرمي عليه بصعوبة وحدتي. عرفت الشيخ عبد المؤمن الشريف لأول مرة تحيط بوجهه هالة من النور، فاستعدت في لقائه الأول بعض الطمأنينة.

دفعني القنوط الذي لازمني في وحدتي إلى التردد على جامع الفردوس، وقد قيل أن رجلاً يقيم فيه لتقديم العزاء لكل من يطلبه منه، وأنّ جمال المسجد يساعد حتماً من يزوره، فتوجهت إلى المكان الذي كان يجاور المقابر القديمة. قال لي خادم الجامع أن المسجد مقفل بسبب الإصلاحات الآثارية عليه، وهو الذي نصح لي بمراجعة الشيخ الذي عمت شهرته في المدينة، فهو الذي يسمح لي بزيارة المكان. وكان مكتبه الذي يستقبل فيه الناس جزءاً من المبنى الجديد الذي ألحق بالجامع، تغطي أرضيته بسط ملونة وتفوح رائحة البخور المعطرة في أرجاء المكان. كانت بساطة الغرفة قد أعطتها هيبة الأماكن المقدسة، وأحالت المشهد إلى بهجة ساهمت في تقديم الشيخ الذي كان يتربع على وسادة كبيرة كينبوع من نور فياض.

كان وحيداً عندما وقفت عند الباب بوشاحي الذي يتناسب مع المكان. وعندما سمع سلامي رفع رأسه عن الكتاب الكبير الذي اشترك جلده المهترىء مع السكون العام في سكينة هبطت علي منذ اللحظات الأولى. تطلع إلي بعينين سوداوين تبثان خضوعاً له غلب علي، فاستجبت لنبراته القوية كعسكري يلقي بالأوامر المستجابة لأجلس بعيدة عنه، وتربعت على وسادة كبيرة، وكأني أنتظر تعاليم أخرى منه.

قـال بوداعـة «مـا خطبك؟» فلم أنطق بحـرف، وجـعلت أسوّي الغطاء الأبيض يخفي شعري كمن يتأكد من سلامة هندامه في حضرة رجل كالشيخ. هتف «هل من خدمة؟» ثم لم يمهلني أنطق بكلمة فقال يتأملني متفحصاً «مثلك يجب ألاّ يعرف اليأس» فتعجبت من ذكائه وقوة فراسته، فاطرقت أتمتم «أبحث عن يقين». قـال لي « اليـقين في داخلك، فـافـرجي عنه». آنذاك ملكت بعض الشجاعة لأتساءل «وبم يا مولانا»، ولم أعـرف لم ناديتـه بهـذا اللقب، ولكني أعـتـرف بسطوته الروحية عليّ. قال لي «بالتسليم أيتها المؤمنة، بالتسليم أيتها المرأة التي أنعم الله عليها بالجمال... في روحها وفي وجهها».

فـجـأة أغـمـضـت عـيناه، وترنح رأسـه ذات اليـمين وذات الشـمال، فـباتت لحيته السـوداء اللامعـة كبيرق يهش عليّ بسلام، وكانت شفتاه تمتمتان فلا يصل سمعي شيئاً من حروفه السحرية، فانشدّت أذناي مستفزة أحاول تفسير ما يقوله، ثم تحولت الشفتان إلى النطق بكلمات مسموعة وكأنه يقرأ آية من القـرآن الكريم «وقل ربّ أنـزلـنـي مـنـزلاً مـبـاركـاً وأنـت خـير المنزلين»، ثم تكررت الآية أكثر من مرة لتغيب بعد ذلك، فوجدت نفسي أكررها في سري، وكأنه بتكراره للآية يعلمني إياها.

بعد لحظات من الهدوء الذي زادت وطأته، انفرجت شفتاه مرة أخرى عن آية جديدة «قل أعوذ برب الفلق، من شرّ ما خلق، ومن شرّ غاسقٍ إذا وقب، ومن شر النفاثات في العقد، ومن شر حاسدٍ إذا حسد» ولبث يكرر «ومن شر حاسد إذا حسد» أكثر من مرة، وبتلوينات أغرقت الجو بإيقاعات ممطوطة كأنه ينشر السحر، ثم ما لبث أن نظر إليّ كمن يحيطني ببركة تبعد عني أي عين قد تصيبني بسوء. شعرت بشيء من الاعتزاز، وتلمست في إيقاعات صوته المتواترة إحساساً خاصاً، وكأنه يطويني في اهتمامه وعطفه الذي سيتجلى بعد ذلك بدعائه الذي رفعه صوته إلى عمق الفضاء الذي أحاط بنا «اللهم احفظها... اللهم ولا تدخل إلى قلبها اليأس أو القنوط، واجعلها راضية مرضية».

هل يمكن أن يكون لك صديق منذ اللقاء الأول؟ هذا ما حدث لي من تساؤل عميق وأنا أغادره. وتوجهت في اليوم التالي إليه بناء على دعوته، يرافقني شعور الحاجة إلى صديق. كان البخور قد توقف. وكما البارحة كان يملأ جو الغرفة، ولكن رائحة طيبة كانت تفوح، وكأن وجهه المتهلل يبعث بها من فرجة ترحيبه التي أدخل منها إلى أملٍ قادم. كان الود يرافق كلماته «ابشري فلقد رأيتك في الحلم ملاكاً

يباركني، فعلمت أنك هي من يعطي الطمأنينة»، فأطرقت خجلاً من مديحه الذي كان كالشعر.

كان الشيخ عبد المؤمن بلحيته السوداء أقرب إلى ممثل برع في أدوار أمراء البادية، ولا أعلم ما الذي جعلني أعقد مقارنة بين صلابته الحنون وبين نعومة زوجي السابق التي كانت تخفي القسوة والتي أسفرت في نهاية المطاف عن خشونة آذتني فحُسمت بالفراق. قال لي «مثلك من يخفف عن الآخرين، فنورك بلسم».

في اليوم التالي قبلت دعوته لزيارة داره القديمة في (باب المقام) حيث يقام احتفال ديني. لم اسأل عن المناسبة وقلت لنفسي لا ضرر في ذلك. جلست مع بضع من النسوة اللواتي رحبن بي كضيفة مميزة أوصى بها الشيخ شخصياً. وكنا نتابع من خلف ستار خشبي مشغل، فتحاته الصغيرة تطلّ على حوش الدار، فكان (الذكر) يحييه رجال ملتحون يتعالى إنشادهم في السماء، تشترك حلاوة أدائهم مع أشجار النارنج وأصص الفل والتمر حنة في عودة إلى ماضٍ جميل. وكان الشيخ عبد المؤمن يجلس على سدّة عالية وقف عند طرفيه رجلان يشاركانه في متابعة إيقاع الذكر، هو يضرب بكفه على فخده وهما يتمايلان تلبستهما نشوة. كنت أقاوم في البداية

الانخراط في الجو، لكنني ما لبث أن سعيت إلى البهجة بنفسي فجعلت أردد كلمات من المدائح، تجرني الإيقاعات إليها التي لم أجد لها اسماً سوى (المباركة) تتنزل عليّ في عزلتي، لتقودني إلى عالم جديد ما خلت أنني سأدخل فيه بالرضى الذي تسلل إلى قلبي، فوجدتني فرحة عندما عدت إلى بيتي الذي ما زال في ملكية الشايط ، فامتلأت حبوراً أنساني وحدة الأيام الخالية.

وابتدأت منذ تلك اللحظات أتحرر من آخر آثار الزواج السابق بالرغم من احتواء البيت لي. واستيقظت في اليوم التالي على صوت الشيخ عبد المؤمن على الهاتف لأول مرة، وكان يخبرني أنّ أحد رجاله سيمرّ بي مساء اليوم ليصطحبني إلى مزرعته القريبة من المدينة، إذ أن أمراً هاماً سيخبرني به، ولن يكون هناك مكان أفضل من أرض خضراء مثمرة، فلم أبدِ اعتراضاً، طغى علي شعور أقوى من مناقشته، بأن مرحلة قادمة قد جاء دورها وأنّ عليّ الاستعداد لها، فقد تكون نقطة الانطلاق التي لابد منها للتخلص من شبح الماضي. كانت مكالمته رقيقة لا تحمل صلابة شيخ يأتمر بأمره رجال كثيرون، فتفتحت في مخيلتي عشرات الاحتمالات لما قد يحدث مساء،

وكانت مغامرة الاحتمالات أيّا كانت تولد انتعاشاً في كل جزء من روحي أو ومن جسدي.

بعيداً عن المدينة وعلى طرف الاوتستراد لمحت نوراً ضئيلاً يلوح من بقعة مظلمة، قال المرافق إنها المزرعة التي تخص الشيخ. استقبلني عند نهاية الممر الذي عبرناه من السور نحو مركز المزرعة، عدد من الرجال تسلموني من السيارة، وأحاطوا بي في مسيرة احتفالية وقورة انتهت عند الساحة الصغيرة التي يقع بناء بسيط على طرفها تغطيه نباتات متسلقة، ويشرف على بركة ثمانية الأضلاع تتدفق من نافورتها حزمة مياه تخرج لتفرش شكل زنبقة لتعود إلى البركة من جديد. كان المرج الأخضر الذي يغطي المساحة تحف به من أطرافه قامات عالية من أشجار السرو يتصفها عند الطرف الفرعي شجرة جوز يبدو أن عمرها يفوق أعمار سكان المزرعة، ويبدو أن الماء الغزير قد روى الشجرة جيداً فخيمت بأغصانها المورقة على جزء كبير من الساحة. كان المشهد المضاء بحبال من الأنوار يشبه احتفالاً كبيراً، فانكشفت لي مدى العناية به، وأن مالك المزرعة أو الشيخ لا يمتلك طاعة رجاله وحسب بل يمتلك أيضاً التنظيم الشامل وأحواض الزهور المنسقة، فلم تغب المزرعة لحظة عن الحيوية.

بعد قليل حضر شباب بلحاهم الخفيفة يحملون مائدة من الداخل ليضعوها بالقرب من البركة، وليعودوا، وقد عادت الساحة تضمني لوحدي أنتظر. كانت المائدة عامرة بالأطباق، كأنما حفلة ستقام بعد قليل، فهل يعقل أن الدعوة قد وجهت إلي؟ وتساءلت عن باقي المدعوين، فهل يعقل أن تكون حفلة مختلطة؟. كانت هناك أريكة متأرجحة تحملها حبال حديدية، فجلست عليها أنوس لتهبط علي عشرات الأفكار. هل يريد الشيخ الشريف أن يمنحني شعور من يقيم في الجنة؟ أهي رسالة منه، أم أنها تلك طبيعته؟

تساءلت بعد حين «ما هو الأمر الهام في حياة الشيخ سوى أن تكون تعاليمه مطاعة» ففكرت إنه يدعوني لكي أكون من أتباعه، ولم أنا بالذات، هل يعرف حقيقة أمري التي كان فيها التمرد سبباً في إبعادي عن مملكة زوجي السابق، هل أقول إن مشاعر المهانة كانت هي التي تسيطر عليّ كلما تذكرت أيامي مع الشايط، أتراه يخلصني من تلك المهانة العالقة، ذاك الشيخ؟

كان نباح الكلاب الشاردة أو التي تخص المزارع البعيدة، يأتي من بعيد يعطي للفراغ الليلي مهابة يخفف منها جمال البقعة التي تمنح السكينة وهي تحيط بي من كل جانب. أهو

شكل أرضي للجنة يأوي إليها الشيخ كلما أحس بجهنم الواقع في المدينة، فلم أرادني أن أدخل جنته؟

فجأة غمر المكان صوت ساحر امتلأ الفضاء به، وكأن مضخمات صوتية وهي تنقل الصوت بآيات من القرآن توزع التراتيل على كل ما هو حي في الساحة الخضراء، فتلبسني نوع من الخشوع. لا أذكر حرفياً تلك الآيات، لكنها كانت على صلة بالجنات التي تضمن أزواجاً، ولكني مازلت أذكر تلك الطلعة البهية للشيخ وهو يخرج من البناء الذي حولته المتسلقات إلى كعبة خضراء. خرج وحيداً بثوبه ناصع البياض، كوليٍّ يخرج من ثقب كبير ويتقدم مني بأناة وهدوء، كأنه يمشي على بلاط مشع قابل للكسر، وكأن وجهه يومض بابتسامة السعادة، فاختلط الأمر علي لألبث على الأرجوحة ساكنة لا تتحرك، وقد ظننت أن ما يجري هو جزء من حلم، فانجذبت إلى الشيخ الذي كان مايزال يتقدم نحوي حتى ظننت أنه لن يصل فاشتملت عندي رغبتان، أن يصل إلي سريعاً، وأن أعود إلى طفولتي فأركع لله شاكرة أن الغمّة التي كانت قد خيمت على حياتي، زالت لتوها.

وكنت قد طويت الأوراق المتناثرة، وجعلت أتابع الحكاية وكأنها حلم رأيته، وجاء من يعيد سرده علي بتفاصيل أكثر

دقة. وتابعت ليلى: سمعته بوضوح منير وهو يقول بود يخترق القلب «أهلاً بليلى»، ثم اتخذ له مقعداً بالقرب من الأرجوحة. وبينما ينظر إلي كانت ذراعه تمتد لتقدم لي تفاحة من المائدة العامرة تسلمتها دون تفكير، وتمتمت «أهلاً». قال «أيرضيك مكان الراحة هذا؟» فهززت برأسي دون كلمة، فهمس بعمق «تكتمل السعادة هنا بوجودك معنا». كان صوت القرآن قد توقف منذ جلوسه، وتحول الهدوء إلى بساط تلعب النسائم العليلة عليه، واستقر القلق الذي كان يلازمني في قدومي، وقال الشيخ عبد المؤمن «رحم الله زوجتي. اتخذها إلى جواره، لكن الإيمان أعاد إلي صوابي، ورأيتك. ذلك اليوم كان فتحاً منّه الله علي، فعاد إليّ استسلامٌ للقدر سعادة».
ثم إنني تابعت صمتي فأكمل هو قائلاً «أعلم كل شيء عنك يا ليلى، فهل تقبلين بقدر الله، وأن تكوني لي حلالاً؟».

كان الشيخ عبد المؤمن الشريف في أوج الرجولة، وكانت جرأته تتجاوز قدرتي على التفكير. كنت أفكر في عرضه، وبالرغم من أني لم أكن بحاجة إلى مال، لكنني كنت بحاجة إلى سند أعتمد عليه في وحدتي القاتلة. مكثت صامتة إلى أن قال «هل أعتبر سكوتك مباركة لطلبي!». فوجدت رأسي تومىء بحركة جعلته يهتف خارجاً عن وقاره «شكراً لك

يا ليلى». صفق آمراً، فحضر اثنان من رجاله يحملان المائدة لتكون بيننا تجعل التواصل أكبر، ثم اختفيا لنبقى وحيدين من جديد. عاد الشيخ الشريف إلى طبيعته كما رأيته أول مرة، فأحسست وكأني تابعة له يسيّر حركاتي بنظراته الثاقبة.

ستسرك صحبتي بالرغم من كثرة مشاغلي، وأدعو الله أن يجعل من أيامنا القادمات تسبيحاً بحمده تعالى، وأن يؤكد نعمته علينا بأولاد يزيدون من قوة المؤمنين قوة، ويطرحون علينا البركات. هكذا كان يقول بينما كنت أدعو الله ألاّ أكون سبباً في عدم الإنجاب.

- ١٨ -

جلست في صومعتي صاحياً بعد نوم متقطع، كانت ليلة مشوشة، ولم يكن هناك أي حلم قد عبر خيالاتي في لحظات الإغفاء القصيرة، فصفحة عقلي كادت أن تكون خالية، إما لأن التشوش قد بلغ مداه فطمس أي احتمال لصورة قد تظهر في نومي، وإمّا أن قوة الواقع الذي حكت ليلى جانباً منه قد سدّ علي الرؤيا. عدت إلى سجل منامات جدي أقلب صفحاته، أعيد قراءة بعض المنامات فلفت نظري واحد منها يقول فيه جدي أنه كان صاحياً عندما شاهد الأمر التالي، فقام بتسجيله في دفتره، وهو لا يعلم إن كان ذلك حقيقة أم خيالاً، فالتبس عليه الأمر.

نظرت إلى الجنود المنتشرين في الزقاق عبر شق من ستارة النافذة. كانوا يشهرون سيوفهم وطبنجاتهم وكأنهم على وشك الاشتراك في معركة ضارية، أو أنهم يستعدون لمقابلة قوة عداء عاتية. قلت استرها علينا يا رب فالشر قادم. بعد لحظات رأيت عدداً منهم يلتفون حول شيخ معهم، بدا وكأنه

قد خرج لتوه من المسجد، وكنت أعرف الشيخ الصالح يتلو خلال النهار وبين أوقات الصلاة أدعية للدين وللسلطان. أطبق الجنود عليه يتصايحون، وسمعت أحدهم يصرخ «من هو مولاك؟» فيهتف الشيخ مختنق الصوت «الله مولاي والمجد للسلطان»، فلمحت سيفاً معقوفاً كناب طير كبير يرتفع في الفضاء ليهوي، وإذ بالجنود ينفضون عن الشيخ وقد تناثرت بقع الدم على ألبستهم وظهر الجسد مفصول الرأس الذي طار مع العمامة ليحط على الأرض كرة دموية. جعل الجند يتحركون بهدوء إلى خارج السوق، بينما القاتل يمسح الدماء عن سيفه بجبة الشيخ المرمية على البلاط الأسود ويلحق بهم. علمت بعد حين أن جنود الاتحاديين المتمردين على السلطان قد قاموا بأعمال مماثلة ذهب ضحيتها رجال دين وعلماء وآخرون يتمسكون بولاية السلطان على الأمة، فداخلني الذعر والخوف على المستقبل آنذاك، وفكرت بجدية أن أعود إلى موطني حلب، فقد بت لا أعرف إن كنت سأعمل كعدوٍ أم أني سأعيش خائفاً من الأيام الآتية.

ملاحظة: سمعت بعد أيام من أصدقائي أن المتمردين إنما هم يهود في لباس المسلمين، فاحمنا اللهم من شر الآتي، وخذوا حذركم يا أولادي من بعدي من أي زيف.

قلت لنفسي وأنا أطوي الكراس القديم «ما هذا النوع من التاريخ، تفيض فيه الدماء ويختلط فيه الدين بالزيف!». وتدافعت إلى مخيلتي أفكار كثيرة وأنا أقيس الحوش طولاً وعرضاً، أمشي قليلاً وأتوقف متأملاً، فالقط يسترخي على المصطبة والببغاء ساكت وكأنه يراعي الأفكار التي لم تستقر في عقلي. كنت أفكر بحكاية ليلى مع الشيخ وأذهب بعيداً إلى أستراليا وأردد بعض الأشعار بصوت منخفض. كنت حالة رجراجة لا تعرف السكون. شيء من اللهفة جعلني أعدّ الدقائق حتى المساء ألتقي بليلى فقد تكمل حكايتها التي أنتظرها.

كعادتها، كانت تجلس متأهبة في ركن العمل، تستعد للبدء في أية لحظة، متيقظة تعطي للانتباه قيمة. قالت مرحبة وأنا أتخذ موقعي منها كالعادة «هل كان يومك مليئاً؟»، فهل كانت تتخيل أني أتبع برنامجاً من العمل يليق بسمعتي، ثم بسرعة هتفت «هل من أفكار جديدة بشأن الوثائق؟». وبينما هي تدخل العمل بهمة يمكن أن أحسدها عليها، كانت تتحدث عن أهمية الكتاب لو طبع، وهو ويضم تلك الوثائق فسيكشف أموراً نحن بحاجة إلى معرفتها.

«إني أراها منطقية وعادلة ولا تعرف التحامل»، هكذا كان تعليق ليلى بعد مدّة من الصمت كنت أتصيد فيها أية محاولة للحديث ولكنني لم أوفق، وعدت من جديد أبحث عن مدخل أوجه سؤالاً حول حكاية الأمس، ووجدت نفسي أتساءل بصوت خفيض أحرك انشغال ليلى الصامت «إذن فقد كان الاتفاق في بستان الشيخ!» فتساءلت ببراءة «أي اتفاق؟» فقلت مذكراً «الارتباط بالشيخ عبد المؤمن الشريف!»، فعلقت بهدوء وكأن الأمر لا يعنيها في شيء «بل قل الخضوع له».

واقتصر عقد الزواج في اليوم التالي على شاهدين من الأتباع، كنت أواجهه يتوسطنا موظف المحكمة الشرعية. حمدت الله أن احتفال الماضي مع الشايط لم يتكرر، وقلت إن بساطة البداية هي فأل خير. نظر الشريف متفحصاً بيتي، وظلّ ابتسامة انتصار يرتسم على وجهه وهو يقول «الآن سيسترد الشايط أملاكه من الحجر والخشب». وسأخرج من الدار بملابسي ومجموعة كتب، أخطو نحو مستقبل تفاءلت بقدومه.

جمعتنا داره الكبيرة في آخر بناء من باب المقام، فكانت البرية واسعة أمامنا كأنها مشروع صحراء. وبالرغم من قدم الدار فقد ظهر التجديد عليها من ترميم وتلميع للبلاط

والمقرنصات، وكانت وسائل الراحة من مطبخ وحمامات تثير الانتباه، فجمعت الدار ميزات القدم وحسنات الحداثة، ولأول مرة في حياتي آخذ حمامي في شيء اسمه (الجاكوزي)، وهو نوع من البانيو الذي تفور فيه المياه كينابيع تخرج من الأرضية وأمواج تتدفق من الجوانب، ويتسع لاثنين يمكن لهما أن يجلسا فيه ويتسامران. أحسست منذ الأيام الأولى أن جهوداً خاصة تبذل لأنعم في الدار حيث تقوم على خدمتي امرأتان صامتتان معظم الوقت. سمعت لأول مرة منهما لقب (الأمير) عندما ذكر الشيخ.

كانت الدار المطلة على بادية رملية كأنها حصن منيع، ترتفع جدرانها الخارجية فتحيط بالغرف العالية الأشبه بالقاعات الملكية، وكانت نوافذ الغرف تطل على صحن الدار التي بدا فيها صحن دار أهلي كرقعة في شطرنج، وكان الحوش قد جدد بلاطه وطعم بقطع من المرمر الملون. وكان الجانب الشرقي من الدار مجهولاً مني وتسمع حركة مقيمين فيه، فلم أبدِ فضولاً في أي سؤال عنه.

هل أنكر سعادتي في أسابيعي الأولى، فالرجل عطوف لم يتردد في توفير كل شيء لي، ولكن أموراً ظلت خافية علي، وإن كنت أقدر أن الطرف المقفل من الدار يجمع رجالاً من

أتباعه قد يكونون لحمايته، فقد تبين لي أن الشيخ الشريف قوة شعبية ظهرت من خلال من يترددون على الدار لاستشارته وطلب المباركة، ولكن غيابه المتكرر كان يغطيه بقوله إنّه يضطر للسفر أحياناً في أشغال يطمئن فيها على مشاريع خيرية أقيمت في عدد من المدن أو للاطمئنان على صحة أقارب وأصدقاء يقيمون في دول مجاورة لم يذكر اسمها.

لم أكن أعرف الخروج من الحصن إلاّ مع واحدة من المقيمات معي، عرفت منها أنها أخت له بالرضاع، فكانت الحارس الأمين في إقامتي أو في التردد على السوق للشراء. وها هي الأيام تمر. فإذا كنا وحيدين كزوجين، كان يخلع عنه وقار الشيخ المرشد ليكون محباً وأحن الرجال، فأنسى أية أفكار وهو يطوي برقته وحدتي الطويلة.

اكتشفت بالمصادفة، وكنت أجول في الدار، أن السقيفة تحت الدرج الذي سدت نهايته بالباب المؤدي إلى القسم المقفل، مليئة بالأسلحة وصناديق القنابل اليدوية، فكان أن انقلب علي الشيخ غاضباً لاستفساري عن السقيفة التي نسي إحكام قفلها، وحذرني من أن أبحث عن شيء لا يخصني، ثم ما لبث أن استعاد هدوءه ليشرح لي أن ما رأيته يخصّ أصدقاء له، وإنما هي أمانة عنده لا يجوز لأحد أن يتصرف بها أو حتى

أن يراها، ودعاني إلى ركعتين تطهيريتين قادني في نهايتهما إلى دعاء يبعد عنا النميمة ويحفظ لنا قوة أسرارنا التي منحنا إياها الخالق العظيم ويهبنا الصبر ويفرج عن كروبنا. وانزوى يقرأ في القرآن بصوته الواثق الرخيم، إلى أن عاد إليّ ملاطفاً يردد «أنت زوجي، حاميتي، ومبعث طمأنينتي»، فلبثت هادئة أبادله الود ويدخل قلبي الاستسلام.

كانت أخبار الاضطرابات التي تزايدت في البلاد قد وصلت إلي من إذاعات خارجية، فلم أصدق أنّ أموراً كالاغتيالات تجري فيها من وقت لآخر، وأنّ ثمة ملاحقات لرجال يطلقون النار ويختفون، وكنت إذا تساءلت ابتسم الشيخ في وجهي وحسم الأمر بقوله إن الله أنعم علينا بالسكينة في دارنا وهذا ما نطلبه ونحافظ عليه. وقال لي ألست في مأمن من أي خطر، إذن فلنتوجه بالشكر إليه سبحانه وتعالى، فأقول لنفسي اللهم احفظ لنا الأمان.

لم يكن قد مضى على زواجنا سنة واحدة، عندما حدث شيء غريب، فقد فتح الباب الذي يفصلنا عن الجناح المجهول من الدار، وتدفق منه رجال ثلاثة يحملون جسداً مدمى ويهتفون بصوت ضعيف «الله أكبر ... الله أكبر»، فأدخلوه إلى غرفة الاستقبال التي كان الشيخ يستقبل زواره فيها عادة.

هرعت لأول مرة اختلط بالغرباء وقد تجمعوا في مقام زوجي، وكنت قد رأيت كل شيء من نافذتي، وناديت مذعورة أن أحضروا طبيباً، لكن الشيخ كان عند المصاب يقف وهو يردد بخشوع «الله هو الذي يشفينا»، فلم أستطع الاقتراب أكثر من الرجل المسجى ينزف دماء كثيرة والذي لم أره من قبل، وكان الرجال يحملون البنادق على أكتافهم ينظرون بأسى إلى الرجل الذي سيسلم الروح بعد أقل من ساعة.

جاءني الشيخ إلى غرفتنا، وكنت أمسك دموعي منكبة على مخدة أرتعش حزناً ودعاء. جلس بقربي يداعب سبحته بيد، وبالأخرى يمسح على شعري بعطف أبوي، ليقول بعد قليل «الجهاد في سبيل الله يفتح أبواب الجنة». فلم أعلق بكلمة، فعاد إلى همهمات خلتها آيات من الله يتلوها، ثم قال لي «اسمعي أيتها الزوجة الطيبة، إن محو الكفر يعني التضحية، ولقد أمرنا الله أن ندافع عن ملكه لكي يتحقق ملكوته»، فنظرت إليه بدهشة، وقد ابتدأت جوانب من الحقيقة تتكشف لي، فلم أنبس بكلمة.

هتفت ليلى بابتسامة حانية «ألا يجدر بنا أن نتابع عملنا»، وانكبت على طبقة من الأوراق لتناولني واحدة منها، وهي تقول «ما رأيك في هذه الوثيقة؟»، قلت وأنا أستعرض

أسطرها القلائل «عجيب تلك المصادفة، فالمرحوم الجابر يوجه أتباعه إلى التزام الهدوء في لقائهم بأفراد من حزب آخر، هو يذم العنف، ويدعو إلى احترام الرأي مهما كان مخالفاً». ولم أستطع أن أتمالك نفسي، فصحت متسائلاً «هل تغير منطق الأمور مع تقدم الزمن؟».

وحدث بعد صمتها أن سألتها مستفسراً «وماذا حدث بعد مقتل ذاك الرجل؟» فقالت ليلى «وماذا كنت تتوقع أن يحدث؟»، ثم تابعت بهدوء وكأنها تتابع حكاية من ماضٍ غريب عنها:

خرج الشيخ تلك الليلة. كنت أغفو على الكنبة بين نائمة الجسد وصاحية العقل، أفكر في كل ما حدث ولا أجد حلاً أو مخرجاً. عند الصباح لم يكن هناك أحد يجيب على نداءاتي المتكررة، فالدار خالية، ولم يكن هناك أية حركة تدل على وجود أحد. جلت في الدار أبحث وأنادي، فكان الفراغ يحيط بي من كل جانب، لم أعرف الخوف وحيدة، ولكني خشيت من الزمن الآتي فازددت قلقاً. وعلمت أن الكل قد غادر، وكانت أخت الشيخ بالرضاع والأتباع أيضاً، والأسلحة وملابس كثيرة قد اختفت أيضاً. علمت أني وحيدة فانخرطت في بكاء موحش.

قضيت بعد الظهر ألفُ في الدار كحيوان حبيس، وسمحت لـي مساحة الحوش أن أقطعها عشرات المرات، إلى أن سمعت الباب الخارجي يُدق بعنف فتوجهت إليه بذعر. كان فضاء الدار يردد الطرقات يضخمها، وما أن فتحت الباب حتى تدفقت مجموعة كبيرة من الجنود المدنيين يشهرون الأسلحة ويملأون صحن الدار، بينما الرجل الذي يقودهم يسأل «أين الشيخ عبد المؤمن الشريف؟» فوقفت مخذولة لا أقدر على جواب.

قال لي إن زوجي مطلوب مع رجالٍ هم من أتباعه، والأفضل لي أن أدلي بمعلومات عنهم. لبثت ساكنة أراقب عودة الرجال الذين انتشروا في كل مكان وزاوية من الدار. فتشوا الغرف والأقبية والسطح أيضاً، حتى أن البئر الذي كان يستخدم في الماضي نزل فيه رجلان ليعودا بعد قليل. قالا إن لاماء ولا أحد فيه. قال قائد المداهمين بلطف وهو يدعوني إلى الجلوس «ألم تلمحي يا سيدتي أي سلاح أو حركة مشبوهة من رجال يدخلون ويخرجون؟» وكنت ما أزال كالممسوسة غير قادرة على الإجابة، فقال الرجل «أرجو ألا تخفي أية معلومات يا سيدتي، فالقضية تمس الأمن القومي للبلد»، ثم طلب مني بتهذيب مستغرب أن أرافقهم لاستكمال التحقيق.

كانت السيارة العسكرية الجيب تقلني معه، فظل صامتاً إلى أن وصلنا مركزاً عبر تجمعات عسكرية لم آلفها من قبل. واستمر التحقيق حتى منتصف الليل، لم أنطق فيه إلا بملاحظات تتعلق برعاية الشيخ لرجال لا أعرف عنهم شيئاً. اضطررت بعد تعب أن أحكي لهم عن حادثة الأسلحة، وعن موت الرجل الذي أحضر إلى الدار منذ يومين، كنت عاجزة عن تحليل ما جرى، وكنت لا أستطيع تصديق الحكاية من أولها لآخرها. هل كنت عمياء، أم أن خبرتي عجزت عن فهم ما يجري من حولي.

يبدو أني خضعت لمراقبة دامت أشهراً. وكنت قد انتقلت من دار الذكريات الدموية لأعود وحيدة أعيش على ما تبقى من زوجي الأول. لا أريد أن أتوسع في ذكر تلك الأيام فالشيخ الذي اختفى كشبح لم يخلف سوى الحظ البائس.

- ١٩ -

كان علينا في ذلك اليوم أن ننجز ترقيم الأوراق والوثائق كافة، وإذ ننهيها نهتف بصوت واحد «انتهينا»، علقت ليلى «من المرحلة الأولى»، فقلت لليلى «ألا نكافىء أنفسنا؟» ثم أضفت «ألم يحن الوقت للخروج قليلاً!» فلم تبد اعتراضاً وكانت ابتسامتها رداً، فسألتها « ما رأيك في جولة في المدينة؟» فتابعت ابتسامتها.

قالت ليلى ونحن نخرج في السيارة من حدود المدينة الجديدة الهادئة إلى صخب المدينة القديمة و زخمتها «مرت علي سنوات لم أتجول في المدينة التي عرفتها فمنعتني عنها الغربة التي لاحقتني» فعلقت ضاحكاً «مادمت معي فلن تكون هناك غربة» فلم تعلق بكلمة، ظلت تتفحص الطريق بتفاؤل، وكأني أحسست بها سعيدة.

فرحت ليلى بموقع المقهى، وظلت وهلة تتطلع إلى درج القلعة وكأنها تراها لأول مرة. ومشت خطوات وهي تقول «هل تعلم أني لم أزرها منذ أيام الطفولة». وكان الحاج صبحي

يأتي مهرولاً يرحب بنا، فقدمت ليلى إليه صديقة غالية، فابتسم بخبث، ونظر إليها بإعجاب، ثم انتقل إلي بنظراته وكأنه يهنئني على حسن الاختيار، فلجمته بنظرة قاسية.

وقبل أن يهبط المغيب، هبت نسائم طرية جعلت الشاي بين أيدينا كشراب منعش، واهتزت لها ليلى وهي تقول «أهو مكانك المفضل؟» ضحكت قائلاً «لم يبق لي غيره في الزحمة التي تتزايد يوماً فيوماً، وقلت لها إنّ عراقة المدينة تطلّ عليّ في هذا المكان فتمسح عني الأحزان».

- أية أحزان؟!

هكذا تساءلت ليلى باستغراب.

- أحزان الأحلام الخائبة.

أجبت مطرقاً، وقلت لها إني أعيش وحيداً بعد أن سافرت زوجتي لتلحق بابني وعائلته التي نسيت البلد تماماً، ويبدو أنها لن تنوي العودة أيضاً، آنذاك تمتمت ليلى «يبدو أنك وحيد أيضاً».

وابتدأت الظلمة المنارة بالأضواء تخفي انفعالات قد تظهر عليّ، بينما ساهمت أنوار القلعة بانتعاش أصاب ليلى، فجعلت تحكي بتدفق، وكأنها تستكمل حديثاً سابقاً:

مضت سنوات قبل حصولي على الطلاق، فأخبار الشيخ كانت قد انقطعت تماماً، وباتت الشريعة في صفي، واقتنع القاضي الشرعي بطلب التفريق الذي تقدمت به أكثر من مرة. لا أكتمك أن الشيخ عبد المؤمن كان مرشحاً ليكون زوجاً صالحاً، وكانت المدّة التي أمضيتها في عصمته مبعث استقرار سرعان ما انقلب إلى شكوك تأكدت بغيابه المفاجىء. وكنت قد علمت أن الشيخ يقيم في دولة مجاورة، مع أنه لم يرسل أية اشارة إليّ تنبىء بعودته إلى بيته وزوجته، فآلمني الهجران، وإن كنت علمت أن وضعه السياسي قد دفعه إلى ذلك، وأن تقديره للأمور بشكل صحيح قد أعماه عن البقاء.

- هل أنت نادمة؟.

هكذا توجهت بالسؤال إليها فقالت:

- هو ذا قدري.

وماذا حدث بعد ذلك؟ هذا ما كنت أفكر في طرحه على ليلى التي جعلت تقول لي «ستسألني، أعلم أنك ستسأل كيف مشت معي الأيام بعد ذلك؟»، بعد حين، قالت «ستسمع العجب».

وانضم إلينا من جديد صاحب المقهى يقدم بنفسه فنجانين من القهوة، قال إنها دعوة منه، وكأني أحسست بأنه يريد أن يعرف المزيد عن السيدة الجميلة التي ترافقني. قال الحاج صبحي دون مقدمات «لابد أنك معجبة بالأستاذ! الجميع هنا وفي كل مكان، وأنا منهم، يكنون محبة خاصة للرجل الذي يكتب عن الإنسان والمدينة، وعن المشاعر الصادقة»، فوجدتني أنبري للجواب «السيدة ليلى أمينة على تراث شيء له قيمة»، وأنا أقوم بمساعدتها» فهتف الحاج صبحي «بارك الله»، ثم ساد الصمت. بعد قليل وقف الرجل يتابع أعماله، فقمنا راحلين عن المقهى.

في طريق العودة إلى دارها قالت ليلى «أعطيتني الكثير»، أجبت «أنت التي أعطيتني معنى لحياتي»، فلجأت إلى الصمت، وظلت هكذا إلى أن وصلنا. وعند المدخل دعتني إلى الدخول «لن نعمل اليوم، سنتحدث بعد العشاء» واستدركت بقولها «لم استعد للدعوة، ولكننا سنجد شيئاً مشتركاً للطعام» وكانت دعوتها واحدة من المسرات التي دخلت قلبي، فسعيت خلفها دون تعليق.

قالت لي، ونحن ننفضّ عن الطعام، وقد حضر الحارس العجوز ليعيد إلى زاويتنا طبيعتها وهدوءها «مضى زمن طويل

لم أتناول فيه طعاماً مشتركاً». وبابتسامة راضية « الخط البياني المتعرج هو حياتي، آمال واعدة، أحزان، لم تنجب سوى انتظار ما سيلي بعد فشل، وقدرة على الاستمرار في الحياة. هل أقول عن نفسي، عن ليلى، أنني تشربت من الأشجار دائمة الخضرة قدرة على البقاء والازدهار بالرغم من كل شيء».

ماذا يحدث عندما ينتهي عملنا المشترك؟ لم أجرؤ على طرح السؤال، كان الأمل يفرخ في أعماقي أفكاراً كثيرة عجزت عن التعبير عنها. قالت ليلى بعد لحظات «علمت بعد زمن أني مازلت خاضعة للمراقبة. مكالماتي الهاتفية، تحركاتي، وقد أعلمني خليل البني بكل شيء بعد ذلك». تساءلت مستيقظاً لحقيقة لابد أنها قادمة « ومن هو خليل البني؟».

سنوات من الوحدة، أستعيد كل يوم فيها الذكريات من حوادث ومصاعب. أيام الشباب الأولى كانت حديثة مزهرة، أقفز على أغصان أشجارها، وفروع نباتاتها، كفراشة راقصة. لا أنكر أني كنت محبوبة، فأغفو كل ليلة على سعادة مرتقبة. كان الحلم بأنني سأكون فعالة ذات أهمية عندما أنتهي من الجامعة، وسأختار شريك الحياة وفق مقاييس الحب الكامل،

وإذا بالأقدار تختارني كي أكون لعبة بين أصابعها، وكانت اللعبة خشنة حقاً، وأحياناً هادئة كأنما تستعد للجولة الثانية. واستقرت ليلى ساكنة لحظة، كأنما تتردد في ذكر شيء، ثم قالت «هل كنت أنا العقيمة لا أحسن الإنجاب، أم أن زوجيّ السابقين كانا؟» وعادت إلى الصمت ثانية. وقالت إني أتألم دوماً وأنا أحيك الصوف، أعد الرداء الأحمر الذي كنت أعمل على إنجازه بين حين وآخر، بين حدث وحدث. أعترف أنه لم ينته بعد، وقد كنت أتخيله لصبي معجز أو صبية ساحرة الجمال، يمنحاني القوة. كان التفاؤل يختبىء حيناً ثم يظهر كالشهاب في حياتي المعتمة، لأصاب بالبهر، فأتعلق بالحياة أكثر.

عندما سكتت ليلى عن الكلام، قفز سؤالي إليها متمرداً على ترددي «وكيف ظهر خليل البني؟»، فتفحصت ليلى اهتمامي بنظرات لم أجد لها تفسيراً، ثم تابعت القول، كنت قد اعتدت زيارة رفيقة لي من أيام الجامعة تزوجت من تاجر أقمشة، وقد استيقظت معرفتنا منذ مدّة قصيرة، فتبادلنا الزيارات، وكان زوجها يصرّ بين حين وآخر على استضافتي على طعام أو سهرة حميمة، وكأن المجتمع أحسّ بوحدتي فظهر من يريد مواساتي، فلم أمانع. كنت أسعد بأولادها

الصغار يلتفون حولي ينادوني بخالتهم. هناك التقيت خليل البني قريب الزوج لأول مرة. كان خجولاً، لكني علمت أنه يحتل موقعاً قيادياً في الحزب. وتكررت المصادفة بلقائي به. وذات مرة طالت السهرة عند رفيقين إلى ما قبل منتصف الليل، فتطوع بمرافقتي إلى منزلي فلم أمانع. دعاني ذات مرة إلى ندوة يشارك في إلقائها على جماهير حزبية. وفي لقاء منفرد وقف سائقه عند تلّ يطل على المدينة، فمشينا على طرف الجرف نتأمل الاتساع الهائل الذي كان محاطاً بسهول صحراوية، فيبدو كواحة من حجر واسمنت وأشجار تناقصت أعدادها مع نمو العمران. كانت الواحة مزدانة بأعمدة المآذن وأبراج الكنائس، ويطرد جفاف الجو أي احتمال لضباب فيظهر المشهد صافياً. دفعتني بساطة المدينة إلى نوع من الطمأنينة، فتذكرت بعض الأحياء التي كان يتعايش فيها ناس من أديان مختلفة، ويتفاعل الزمن بقسوته وحنوه علينا لتستمر المدينة منذ آلاف السنين حيوية وفعالية بالرغم من زلازل أصابتها أكثر من مرة. قال خليل البني «ألا تذكرك تلك السكينة بما كان يمكن للشيخ عبد المؤمن أن يفعله مع رجاله في كسر إيقاعها؟». وأدركت أن الرجل يعـــرف كل شيء عني، فلزمت السكوت، وتابع «أليست المدينة جميلة وتستحق الأمان!». بعد قليل قال البني

بصوت خفيض، أنساني لهجته التعليمية في ندوته السابقة «أعلم كل شيء عن حياتك يا سيدة ليلى، وعندي أمل أن تعلمي كل شيء عن حياتي» قال إنه أجبر على الزواج شاباً صغيراً عندما كان يساعد أباه في المدينة الصغيرة التي نشأ فيها. كانت العائلة التي يؤسسها مثل لعبة مسلية، وعندما تعلم بصورة حرة، وتدرج في مسؤولية العمل الحزبي، استقر في حلب، فشغلته واجباته عن مجابهة التعاسة التي كانت تولدها زوجة أميّة شكاكة متطلبة، تصورت أنها باتت حاكمة بأمرها، وعرفت عنك الكثير بعد أن توقفت مدهوشاً أمام جمالك وحكمتك، التي أيقنت أنها تخفي ما أنا بحاجة إليه.

قال البني دون مواربة «هل تقبلين بي زوجاً؟» ووجدت نفسي أسأل دون تفكير «وعائلتك!» فقال بلا تردد «أضمن لهم حياة كريمة، وبالرغم من الهجر الطويل فلن يشعر أحد بالضيم، ولكني أريد أن أعيش حياتي». فلبثت ساكنة أجيل النظر في رقعة المدينة فأسمع إيقاع الوحيدين فيها يعيشون في عزلتهم، أو يمشون في الطرقات هائمين، وأحسست أني واحدة منهم.

استعرضت في فراشي الوحيد بالدار، تعلق الشايط ببناء مجده المالي، وسادية الشيخ في تحقيق أفكاره بالنار والدم،

وقلت إنه من حقي ألا أعيش وحيدة. وكان إلحاح رفيقتي وزوجها على مر الأيام التي أتت لقبول ذلك الزواج، وكانا في تكرارهما يضربان على وتر عزلتي الذي ما لبث أن أصبح أكثر ارتخاءً. قررت أن أدخل المغامرة الثالثة دون حساب لأي نتائج، فقد وقر في أعماقي أنه لايمكن أن يتكرر الفشل مرة أخرى. اتخذت قراري.

طلب البني أن يبقى زواجنا عرفياً لمدّة من الزمن حفاظاً على اعتبارات كثيرة، فلم أدقق فيها وقررت الدخول في المغامرة. أقمنا في دار حديثة بقلب منطقة قديمة، سأعلم أنها تعود إلى مصادرات سابقة. وكان إعداد منزل الزوجية كاملاً تغلفه لمسة من ذوق ، كأنما أراد البني لحياتنا الجديدة أن تدل على بداية تنسينا نحن الاثنين خلفياتنا المشوشة.

وعدت إلى الحياة الإجتماعية من جديد، كان زوجي الذي خصص سيارة لي يأخذني فيها السائق إلى أي مكان أريد، كأنما أراد أن تكون لي دائرة تحرر نسيتها من قبل. وهكذا ابتدأت الآمال تبرعم على غصن زمني. لا أدعي أن الحب كان تياراً يأخذني معه، ولكن المودة بدأت بالتفتح تجاه الرجل الذي يحاول أن يقدم لي السعادة، فكنت عادلة معه أعطيه كل ما أستطيع، ووضعت مستقبل أيامي بين يديه.

استمر الاستقرار مدّة من الزمن، فبدأت بالتفكير الجدي بأن أعطي لهذا الاستقرار معنى يتجلى في مولود يؤنسني ويمنح رباط الزوجية قوة. لا أنكر أني أردت للحب أن ينبت في أعماقي أغصاناً مورقة، وأزهاراً يضفي عطرها على علاقتنا نشوة. كنت أتخيل أنها نهاية الرحلة الصعبة. فحاولت في السر أن أراجع الأطباء، فزوجي تجربته في الإنجاب ناجحة. ويحيطني زوجي بذراعيه ذات يوم ليقول لي «يقلقني أنك تفكرين في ولد، وذاك من حقك، لكنه لن يزيدني محبة لك فلايشغلني في الحياة سواك. أريدك أن تنعمي بالطمأنينة».

وبعد أيام حضر إلى الدار موظف الاستملاك ليسلمني أوراقاً تدل على منفعتي الكاملة من مزرعة أرفق بها مخطط واضح لتلك المزرعة مع صور فوتوغرافية ملونة تشير إلى اتساع المزرعة وجمال تنظيمها، وكان ثمة صور تدل على الغرف الداخلية للبناء الذي أقيم في وسط الأرض المفروشة بالأخضر، عشباً وأشجاراً مثمرة ومساكب زهور. وفي المساء قال لي البني «أريد لك جنة، وتلك الجنة ستصبح ملاذاً لك عندما يقضي الله أمراً كان مفعولاً». كانت وثائق المزرعة مازالت على سطح المكتب الذي كان يستخدمه أحياناً لإنجاز أعماله، وقد تعودت استخدامه أثناء النهار أتابع عليه هواية

القــراءة. قلت لـه «وعـائلتك! زوجـتك وأولادك، أليس من حقهم أن تكون لهم مثل تلك المزرعة؟» فأجاب وهو يخرج من مـحـفظته مصنفاً فتـحـه أمـامي «أعـددت لهم منفـعـة مـصنع السجاد، وسيضمن لهم المستقبل أيضاً». آنذاك داهمني شعور بخطر قـادم. هتفت بقلق «مـا هـو تفسير كـل ذلك يـا خليل، إنك تدفعني للتفكير بأمور قد تحدث» فقال بثقة كنت أحبها فيـه «الحب ياليلى... هل تعـتـرضين على أن أحـبك وأخـاف عليك مـن دون النـاس جـمـيعـاً!» ثم بضـعف وهو يعـود إلى مـقـعده المفضـل «لن يضـمن أحـد مسـتـقبل رجل سـيـاسي، فالصراع قوي».

وعندما بدأت مسيرة التعلق به، غاب عني ذات يوم. ومر يوم آخر، ثم تلتـه أيام من القلق، كنت أتصل فـيـها بمكتبه فلا أسـمع جـواباً، وطلبت السكرتاريا لأسـمع جـواباً من صـوت غريب يقـول «لقد ترك الأستاذ عمله». بعـد مدّة قصيرة علمت أنه غـادر البـلاد سراً، وأنه مـلاحق من القـضـاء الحزبي. فلبثت عاجزة باكـية وحيدة كعادتـي بين أربع جدران. هل كتب عليّ، كلما اقتربت من جنة الاستقرار واستعـادة الطمأنينة، أن أعود إلى نقطة الصفر؟».

كـان وجـهـها يـحـاول أن يـكـون حـيـاديـاً ، فـهـتفت بحـرقـة «يا لليلى المسكينة!» فتمالكت نفسها وكأنها تخرج لتوها من مستنقع أحزانها، وتمتمت «أهو القدر!». وبدت ليلى في تلك اللحظات بشحوب وجهها الخفيف أكثر جمالاً مما كانت عليه في أي يوم، منذ صباها الفتي وحتى نضوجها الواقع تحت وطأة الذكريات المؤلمة. قالت تتابع بشجاعة نادرة «جاءتني رسالة من بلد بعيد يعتذر فيها عما حدث، وأنه يعلم ما سبب لي من أحزان، وأنه آسف لإعلامي بأني منذ وصول هذه الرسالة يمكن لي أن أكون حرة. وتابعت ليلى وكأنها تدلي بتصريح صحفي «وكأن الطلاق مكتوب علي، لأعود إلى وحدتي من جديد».

- ٢٠ -

دفعتني أوراق الجابر إلى مزيدٍ من التنقيب في تاريخ الوطن. منذ نشأته ومروره في المحن والنمو. كانت كتب ومذكرات رجال عملوا في السياسة أو ما كتب عن التاريخ الطويل، هي محور اهتماماتي اليومية. وتحولت أرفف مكتبتي التي أحتفظ بجزء هام منها في غرفتي التي أعيش فيها صاحياً وحالماً ونائماً، إلى مخزن للذكريات لا أتردد عن القراءة في تلك الكتب طالما أنا في الدار، فكأنما جوع المعرفة للبلد الذي ترعرعت فيه ونموت، كان يفتح شهيتي. فأحس بنهم لمعرفة كل شيء عن الأرض التي أنبتتنا، فتعلق بها ناس وانخلع عنها ناس، ويبدو أنني مصاب بداء الالتصاق. كنت كلما توغلت في تاريخ الوطن وأحداثه، ألتصق بليلى أكثر فأكثر، ولم أكن أعلم كيف أعبر لها عن تلك المشاعر التي استيقظت أو تلك التي تتغلغل في مجاهل الروح. كنت أتصور أن عمري يبطيء حمى الحب، لكنني مازلت أحس بلهيب الشوق إلى ليلى إذا غادرتها، وغليانه إذا ما قابلتها. إلاّ أن الخوف عليها كان

يزداد كلما روت لي جانباً جديداً من سيرتها المعذبة، لذا كانت معظم الأحلام التي تجتاح نومي الليلي مشوشة، وغير واضحة، وتختلط فيها صورتها وهي حافية تركض في البراري، أو لاجئة إلى سفح تل رملي تحتمي به من رياح صحراوية عاتية، وكنت دوماً أصل في الوقت المناسب أحاول أن أفتدي أزماتها. في الأحوال كلها، لم يكن هناك أحداث متتابعة أقدر على تسجيلها في دفتر منامات العائلة.

سألت نفسي «هل أستطيع أن أقدم لها جنة كالتي قدمت لها أكثر من مرة، وسحبت منها، أم أن حبي الخالص هو الجنة الوحيدة التي أضعها تحت أقدامها؟» وقلت في سري «هل يمنعني الجبن عن التعبير عن توقد عاطفتي، أم أن أسلوب الرسائل كأيام الشباب هو ما أقدر عليه؟» فابتسمت لخيبتي. وقالت لي ونحن نكرر الجلوس في مقهى القلعة «أليس كثيراً على امرأة مثلي أن يتكرر زواجها أكثر من مرة؟» فأجبت ونحن نتابع حركة الشارع المسائية وكأنما تتحاشى النظر إلي «مازلت سليمة، وقدرتك على متابعة الحياة تفوق طاقة أية امرأة»، تصور أني فكرت من جديد في استكمال الدراسة. كنت بعد مرحلة من الجمود الذي أصابني أعيد تقويم كل ما حدث لي، وأتفحص المغامرات الفاشلة التي خضتها، ولم يكن هناك من

حل سوى النهوض من عثراتي والبدء من جديد. لم تسمح لي أنظمة الجامعة، بعد انقطاع طويل، بمتابعة الدراسة، فاتخذت قراراً أن أعيد دراسة البكالوريا، فحزمت أمري، وانشغلت في إعادة ترتيب حياتي. ولم تعلق على قولها إنها نجحت في مسعاها، بل تابعت: ابتدأت الحكاية بالجارة العجوز التي كانت تقطن في الدار فوقي، فنشأ بين الوحيدتين صحبة. كانت رقيقة ولكن ضعفها دفعني إلى تقديم المساعدة لها بين حين وآخر. كانت تؤانسني بحكاياتها عن الماضي، فأحسست بأمومتها التي افتقدتها مبكراً. هي تذكرني بطيبة أمي وحنانها، وتوقظ مشاعر الأمومة في نفسي، وتصورت أن الماضي هو للأمهات، فازداد تعلقي بالمستقبل، وبت أكثر تماسكاً أكثر من أي وقت مضى.

عندها، حدث اللقاء الأول. تعرفت بابنها الذي يزورها بين حين وآخر يغمرها بكل ما تحتاج. وقالت الجارة إنه ابنها حكمت الشجاع، الذي قدمته لي لنتبادل التحيات، وبدا لي منفتحاً ودوداً بالرغم من لحظات عنجهيته الأولى. إنه مسؤول كبير، وأستطيع أن الجأ إليه في أية مشكلة. كانت نظراته المتفحصة لي تنبىء عن اهتمام لمع في قسماته وهو يطيل زيارته لأمه على غير عادته.

وفي جلسة صباحية كنا وحيدتين فانصبّ حديثها كله على ابنها الذي بلغ الأربعين من عمره ولم يستقر بعد رأيه على امرأة تكون شريكة لحياته، فهو طير متقلب المزاج يطير من غصن لآخر، فواسيتها بقولي «الزواج نصيب. أنا مثلاً لم يحالفني الحظ في أي من أزواجي السابقين».

علمت أن حكمت الشجاع كان لا ينفك عن سؤال أمه عني، وكان بلباسه المدني بالرغم من رتبته العسكرية الكبيرة، يبدو جاداً ويثير الخوف في أشجع القلوب، وهو يدير جهازاً أمنياً للحفاظ على مصالح الدولة، لكنه برقته البادية في علاقة الصداقة النامية معه جعلتني أكذب كل ما يقال عنه. لم تكن لقاءاتنا يومية بل كانت متقطعة وقصيرة، فمشاغله الرسمية كانت قيداً على تحركاته الشخصية، إلاّ أنه لم ينقطع عن السؤال عني هاتفياً واستفساره عن أية خدمة يستطيع أن يقدمها لي، ولا يلبث عندما نلتقي أن يقدم اعتذاره بأدب جمّ، إنه غارق في العمل، فأبتسم، فيدرك أني غير عاتبة. ذكر لي مرة أنه في شبابه كان قد تعرف بوالدي ومازال يذكر شجاعته في مداهمة أوكار المجرمين والهاربين، وهو لا يتصور إلاّ أنني ورثت عنه تلك الشجاعة. وقال إنه يعجب بالمرأة الشجاعة تلك التي تقف منيعة أمام العواصف مهما اشتدت. ويبدو أن

سيرتي الشخصية كانت كتاباً مفتوحاً أمامه، لذا لم يمر على معرفتي به سوى أشهر قليلة حتى قال لي، وكنا نتحادث بأمور عامة بينما أمه تعد لنا الشاي في المطبخ «اعترف بأن حياتي كانت لاهية، كنت أختلس العبث بين مهمتين، ويبدو أن إخلاصي لعملي القاسي ساهم في طيشي وفي ألاّ أفكر في حياة هادئة ينتظمها الحب والأولاد»، وبلهفة شاب مراهق أكمل قوله «ليلى هل تقبلين بي زوجاً»، قلت له ضاحكة «ومن يضمن لك أني سأقدم لك الحب والأولاد!»، فقال بشيء من التوسل «أرجوك لا تقولي أنك ترفضين»، فدخلت علينا أمه بالشاي فاستنجد بها هاتفاً «لم تقل لي كلمة رضى بعد يا أمي!». فتبادلنا نحن الثلاثة نظرات مختلفة. قلت حاسمة وأنا أوجه الحديث لكليهما «وماذا تعلم عني من قبل أن تعرفني؟» فصاح بلهفة «أعلم كل شيء، وأعلم الكثير عن خيبات أملك في زواجاتك، وأعلم عن رؤيتك الصافية للأمور، وأعلم أنك مثال المرأة بالرغم من عثرات وقفت في وجه أحلامك»، وما لبث أن عاد إلى الكلام بهدوء واثق «وهأنذا أعدك بتحقيق كل أحلامك»، ليضيف بعد لحظة بلوعة محرقة «أشهد الله أني سأسعى بكل ما أوتيت من قوة أن أقدم لك حياة أفضل. ثم ساد سكون أغرقنا في دوامته، أنقذتنا

العجوز منه قائلة «لن يجد أفضل منك يا ابنتي، وأنا أعلم علم اليقين أنّ رجلاً مثل ابني قد مرّ عليه ماض مشوش، ولكنه مؤهل لمستقبل مستقر، فعاد الصمت من جديد. أطرقت لا أقدر على التفكير، كما أني لا أستطيع تجاهل ذلك الموقف المؤثر الذي سيكسره حكمت الشجاع فجأة وهو يقول «هل هناك مطلب معين لك يا ليلى. إني أمتلك النية لتنفيذ ما تريدين، وأقسم على ذلك».

هل كتب علي أن أخوض التجارب وأدفع ثمناً لها مزيداً من الغربة؟. هو ذا ما كنت أفكر به حين امتدت ذراعا حكمت الشجاع لتمسكا بكفي متوسلتين:

- أقسم أني سأرعاك، سأحبّك دوماً.

وهكذا وجدت ليلى نفسها زوجة للمرة الرابعة. كان الرجل مجنوناً بها، فباتت جزءاً خطيراً من حياته، فكانت السكنى في دار أشبه بالقصر الصغير، محاطة برعاية كان أقلها انقلاب حياة الرجل إلى زوج مثالي يبرهن في كل فعلٍ يقوم به أنه حصل على أمنية حياته. قالت بتقرير:

- داخلني إحساس بأني مقدمة على الخطوة الأخيرة، فعرفت الاستقرار.

وأحجمت عن القول إلى أن تساءلت «وماذا حدث بعد ذلك؟» فاستمرت في صمتها إلى أن جمعتنا السيارة في جولة حول القلعة «ظلت طبيعتي كما هي، في أن أقدم له مقابلاً. تعاطف ونية صادقة في بناء أسرة لا تعرف سوى السعادة. كنت أسمع عن صرامته وقسوته خارج الدار، وعندما يعود إلي ينقلب إلى حمل وديع يسعده أن أمسح على رأسه كما الأم مع وليدها تفعل. كان يسر إلي في لحظات من الضعف التي جذبتني إليه، ما كان يعانيه في تقلبه العاطفي، وأنه طالما كان يشعر بحاجة إلى صديقة مخلصة في إهاب زوجة طيبة تصب الماء على نار توقّده وغليانه.

كان يحس بأنه المسؤول الوحيد عن أمن البلد واستقرارها، وقد خفف من نار عواطفه تلك عندما بت أنا جزءاً من البلد. أحضر مرة رساماً معروفاً لإعداد لوحة شخصية لي، قرر أن يضعها في صدر الصالة تيمناً كما قال، فتذكّرت أول شبابي عندما تعلق فنان شاب بي، وفوجئت به يقدم على الانتحار، لكن (البورتريه) المعلقة على الحائط لم تشعرني بفأل سيىء، بل عددتها برهاناً جديداً على نجاح زواجي من حكمت الشجاع، ولكن قراري في ألاّ أذهب بعيداً بعواطفي أو بتفاؤلي كان بمثابة الكوابح تخفف من احتمالات اندفاعي.

كنت في خلوتي أقرأ وأشرف على إعداد الطعام، وأوازن بين رحلة المتاعب والمرحلة التي وجدت فيها. ولا أنكر أن شيئاً من الخوف كان يتلبسني حين أستعيد ذكرياتي مع الشايط في بناء مملكة حسبني جارية فيها، أو أيام الشيخ الشريف الذي اختلف عنده وجها العملة، وجه التدين المريح ووجه العنف القاتل، ثم أستعرض أيامي مع زوجي الشجاع لتعود إلى النفس طمأنينتها.

وكان أول سؤال خجول طرحه زوجي بعد مرور عام على زواجنا، له علاقة باحتمال الحمل، فقلت له إن الله لم يأمر بعد. وتكرر السؤال بعد ذلك بشكل شهري، ولكن حكمت لم يكن لحوحاً أو فظاً في استفساراته، بل كانت رنة لغته عطوفة راجية زادت من ألمي الخفي، كنت أدعو الله أن يلبي له رجاءه. وكان ترددي على الأطباء لا يعطي جواباً يمنح اليأس، بل جاءت معظم الأقوال والفحوصات تنصح بالانتظار، فكانت الأيام تبتدأ بالتعاطف وتنتهي بالتوسل أن يكون لنا ابن. وصار العقاب النفسي يمشي خطوة فخطوة مع الرقة التي كان يظهرها ضعفاً، وهكذا ابتدأ الانقلاب القاسي في أجواء الحياة الزوجية، فعلمت أن شيئاً ما سيحدث في المستقبل القريب.

قال الزوج ذات مرة ونحن نتابع برنامجاً تلفزيونياً أحببنا متابعته، كان يدور حول الحياة البرية الإفريقية «ما الذي ينقصنا كي نكون مثلهم!» وهتف مشيراً إلى الغوريلا التي احتضنت وليدها الرضيع بحنان «ألا ترين إلى اكتمال وجود هذا الحيوان الشرس، ألا تلاحظين بريق العطف في عيني الغوريلا؟» فقلت غاضبة «أتقصد أنها بحيوانيتها الشرسة قد تجاوزت وجودي بأمومتها؟ هل فشلت حقاً في إسعادك!» فمال على كفي يقبلها بفزع رقيق «لم أقصد إيلامك يا محبوبتي. كانت هفوة من لساني الفظ، فاغفري لي».

وكان صمت. واستمر الهدوء أياماً ليتكرر بعد ذلك العقاب المبطن، فقد أحضر مرة معه مجموعة كتب عن تربية الأطفال، وضعها على رف في المكتبة دون تعليق. ومرة أحضر لوحة عالمية لأطفال يلهون في الحديقة مؤطرة بالخشب المذهب اختار لها مكاناً على الجدار في مواجهة لوحتي الشخصية. وابتدأت أدرك أن خطوة مفزعة قادمة لا ريب فيها، فلملمت حوائجي الشخصية ووقفت أمام الباب انتظر قدومه. وسيفاجأ حكمت الشجاع بي هكذا فيتساءل عن سر انتظاره، وحين لمح الحقيبة الوحيدة بجانبي صاح من فزع «ماذا تفعلين؟» فقلت بهدوء «كان عليك أن تعلم أن فرصتي في الإنجاب باتت

ضعيفة، فالتجارب الكثيرة لم تسفر عن نتيجة، وأنا أريد أن أمنحك فرصة أخرى لأنك تستحقها، أما أنا فقد أخذت نصيبي من الحياة». لم أستطع مقاومة توسلاته، ولكننا تابعنا الحوار هادئين. كنت أقول إني لم أخدعه ولكنها إرادة الله، ومن حقه أن يرزق بولد وأن يجرب حظاً آخر مرة أخرى، فيلبث ساكناً. وأقول له مثلك ومن هم في رجولتك وحاجتك إلى حياة مستمرة، يستحق امرأة لا تقتصر العلاقة معها على الحب والتعاطف. وأقول له إني أشعر بالأسى لخيبتي التي لم أتعمدها، فأنا أكنّ لك الشكر والامتنان لانتشالي من الوحدة التي كتبت علي. وأقول له سأكنّ لك دوماً شعور الامتنان لفترة حميمة من حياتي القاحلة، وأقول له أعتذر لك أني لم أستطع أن أحقق الأمنية الغالية التي أعلم أنها من أبسط حقوق الحياة، وقلت له ليكن فراقنا كالأصدقاء، لأني سأظل وفية لمرحلة جميلة، وسأظلّ أذكرها دوماً، وقلت له إني فشلت ولا أريد له أن يدفع ثمن الفشل. قلت له ليس لي عِندك سوى قبول الاعتذار الصادق من القلب الذي لا يعرف سوى الوفاء لقلب يعرف الغفران.

وهكذا افترقنا، وقد قررت أن أمضي بقية الحياة وحيدة، أعيد فيها ترتيب أوراقي بانتظار شيء أعلم أنه لن يأتي. لقد أدمنت الوحدة.

- ٢١ -

قادني قطي الماكر الذي أهملت مداعبته أياماً كثيرة، إلى المطبخ، فحسبت أنه جائع بالرغم من وجود الفئران الكثيرة في ثنايا الدار ترتع في زمنها المتشقق، ليتسلى باصطيادها وملاحقاتها، وإن كنت قد خصصت له صحناً فيصبح الفرد الثاني من بقايا العائلة أشترك معه في طعام اجتماعي. كنت أظن أنه سيقودني إلى صحنه في المكان المخصص له، ولكنه بمخالبه يخرمش على خزانة واطئة ما كنت أعلم شيئاً عنها. كان مصراً على استخدام المخالب كمن يصر على أن يدلني إلى أمر خفي عني ويخصه، ففتحت باب الخزانة الصغير لتندلق من فتحته صحون نحاسية ومعالق وشوك بدا عليها أنها لم تستعمل من عشرات السنين، فقد أحمرّ نحاسها وباخضرار واضح، وانكشف بياضها عن معدن يكشف زمناً عتيقاً. وجعل الماكر يقفز بين أدوات الطعام المنسية تلك، وكأنه يتفقدها أو أنه يثير حنيني إلى زمن استخدامها.

كانت تلك الأدوات يستعملها أولاد العائلة، وكنت أنا والهادي من الذين مرّوا عليها. من كل زوجين اثنين، فتفحصتها قطعة قطعة لتنثال ذكريات الطفولة حين كانت مائدة الطعام تجمعنا، وبخاصة أنا وشقيقي فكأننا واحد لا يفرق بيننا شيء.

وهكذا دفعني الحنين إلى التفتيش في الغرفة المهجورة التي ضمت فراشنا ذات يوم. ملابسنا، ما يخص الهادي وملابسي التي كنا نتبادلها أحياناً. صندله الذي كان يفضله، بينما كنت أميل إلى الأحذية عالية الجدران. كان عقاله مازال معلقاً على المشجب، فتذكرته يضعه على رأسه تيمناً بشيخ من البادية كان يزور الوالد بين حين وآخر، فكانت مهابته بؤرة تستقطب اهتمام أهل الدار، فانجذب إليه الهادي مدّة واتخذ وقاره مسلكاً، فبدا كمراهق متعالٍ. أذكر أني قلت له «لا تنقصك سوى السبحة لتكون شيخ قبيلةً» فغضب قائلاً «وهل السبحة هي التي تعطيني القيمة؟».

هاجت الذكريات وكأنها تستعيد نفسها بحيوية ملأت أرجاء الدار، فكانت ضجة أهلها تتردد بين الجدران وتتعالى في الفضاء، ولكني لم أستطع أن أجد جواباً لتساؤلي حول فعلة الماكر الذي دلّني على الباب الصغير لتطير الذكريات

فراشات متلاحقة في كل مكان ويثار الحنين كغبار الطلع في الربيع، الذي طالما كنت أخشاه لأني أعلم سلفاً أن نهر الحياة لا يعود من جديد، فالمسيرة إلى أمام ولا تعرف التراجع. هل أقول إن حنيني إلى الهادي يقابله شيء من الفزع بعد كل كل تلك السنين؟ ما هي نقاط لقائنا وهل يمكن أن تكون التباين فيما بيننا؟ لابد أن الزمن رسم على وجهه خطوطاً إذا ما رأيتها علمت أنها خطّت عليّ أيضاً، إلا أن التشابه سيظل قائماً بل لنقل التطابق، فهل أخشى أن أرى حقيقة أمري؟ ولمَ لا!

وهكذا وقفت أمام المرآة أتأمل وجهي، ومن ثم حالي، بتدقيق من يشرح أمراً. لا أرى غضوناً، بل كانت هناك ابتسامة شاب متفائل تلمع عيناه بحب الحياة، ويتعلق بها بخيوط لا يماثلها شيء، ثم ما لبثت الصورة في المرآة أن اتضحت وانجلت، فالشعر الأسود يغيب في كومة الشيب، وهامت غمامة من خوف الزمن حول العينين اللتين خافتا، فبدت عليهما حدة النظر كنسر عجوز يبحث عن فريسة تساعده على حفظ البقاء. وكانت بعض الغضون قد أحاطت بالفم والرقبة، فجعلت أمسّدها كمن يحاول إخفاءها. وقفزت ليلى إلى قلب المرآة فأضاءتها لتبدو كزهرة اكتمل تفتحها، كما تكتمل زهرة

الصبار في بتلاتها البنفسجية المتوردة باحمرارٍ لايضاهيه لون. كان وجه ليلى عصياً على ارتسامات الزمن.

قلت لها في اللقاء اليومي الذي انعقد في جلسة أمام الدار المكشوفة للعراء، وكأننا نجلس في حقل من الأعشاب والشجيرات المهملة، لتعطي حديقتها الحزينة فرحاً غير متوقع «كنت سأقترح عليك بستانياً يعتني بالحديقة، ولكنني اكتشفت جمالاً منسياً استيقظ فجأة أمام عيني»، قالت مبتسمة «وهل ترك لي الزمان فرصة؟». هتفت فجأة «سأذهب في رحلة للبحث عن شقيقي، فهو على الأغلب يقيم في قرية جبلية. أتمنى لو كنت معي»، أجابت معاتبة «لم يمضِ علي سوى أشهر قليلة بعد رحيل زوجي، فكيف أترك الدار؟»، قلت إنها رحلة قصيرة، فلم تعلق بكلمة.

تساءلت ليلى، وكانت الشمس تذهب نحو المغيب «لم تحدثني بعد عن حياتك، أسرتك، أوقاتك». فقلت ضاحكاً وأنا أقطف نباتاً شوكياً ظهر وحيداً على طرف الحديقة «أمامنا العمر، وأرجو أن يكون كافياً لأحدثك عن أمور أهم بكثير من تلك التفاصيل».

في اليوم التالي ومع ظهور الشمس، ابتدأت الرحلة إلى الجبل. كانت ليلى مرحة كطالبة في رحلة مدرسية، قد أعدت سلّة من الطعام، وكأننا نقبل على نزهة، فألقينا نظرة على حلب ونحن نخرج منها باتجاه البحر. لم تشاركني زوجتي من قبل في أية رحلة خارج المدينة، كانت تقول إنها لاتحب الغبار والا الشمس الحادة، فكانت مفاجأة لي قبول ليلى وكأنها علامة على رحلة من نوع جديد في حياتي المتشابهة الأيام. كنت أستشعر نوعاً من السعادة لم آلفها من قبل.

وكانت السيارة تمضي بنا بيسرٍ كنسيم يتسلل بين الوهاد وأغصان الشجر. وبالرغم من قدمها الذي طالما أثار تعليق الشباب، أمينة معي لم تخني قط. وكنا نستمع إلي بعض القدود الحلبية التي انبثقت من المسجلة بهدوء، خفيضة تشكل خلفية لأحاديث كثيرة دارت بيننا. كانت ليلى تقول إن الغناء والأذكار الجميلة تساعدها على صفاء الذهن، وهي أيضاً تصغي بارتياح إلى الموسيقى الخالصة. وتساءلت ليلى عن شقيقي تريد أن تعرف شيئاً عنه، فقلت لها عن فراقنا الذي امتد معظم العمر، عن عودته من فرنسا، ومن ثم اختفائه معتكفاً في صومعة بعيدة عن كل شيء، وهتفت أني أتمنى

عودته، فوحدتي باتت صعبة، والأسرة تفتت بعد التحام، وذهب كل فرد في اتجاه.

تساءلت ليلى مترددة «كيف يمكن أن يحدث ذلك، أن تترك زوجتك دارها لتلتحق بابنها. لابد من سبب» فقلت ونحن نمرق عبر قرية صغيرة قسمها الطريق إلى نصفين «لابد أن حب الأبناء غلاّب» فتمتمت «هذا خطأ... هذا خطأ» ثم لم تعلق بكلمة أخرى.

كان إشعاع دفئها يغمر كل المقعد الأمامي، فتلفحني أمواجه فلا أستطيع تسميته إلاّ بالتواصل الروحي الذي ثبت أنه يقوى بيننا لحظة فلحظة. هل يمكن القول إن مشاعر الشباب لم تتغير بالرغم من تعتق السنين للعقل والجسد، فأزداد توقداً. كانت ليلى مصدر إشعاع لروحي ولآمالي التي يتسارع تفتحها في سباق جنوني.

قالت ليلى وهي تقدم لي من سلة الطعام لفة لم أدقق في محتوياتها «ألم تعمل في السياسة يوماً؟ قلت ونحن نشرف على سهل الغاب من علو أشرف على المساحات المنارة بالشمس والألق «يبدو أنه جاء الوقت لأعمل»، فتساءلت «ولم الآن؟» قلت لها «لسببين» ففتحت عينيها باستغراب تنتظر

إيضاحاً. قلت لها إن استعادتها بعد أن فقدتها طوال سنين كثيرة، هو السبب الذي جعلني أفكر بجدية بالغة بعزلتي، بما فيها بعدي عن أي عمل سياسي. صحيح أني لن أكون في تنظيم أحارب من أجله، أو أسعى إلى تطبيق تعاليمه، لكن، والسبب الثاني هو إعادة إكتشاف سورية الوطن الذي أنتمى إليه، وكنت أحسب أن مدينتي حلب الرحم الذي نشأت فيه هو المصدر لذلك الانتماء. وقلت لليلى «ألا تظنين أني تأخرت في الوصول إلى مثل هذا التفكير» فقالت وهي تشدّ على يدي التي كانت تمسك بالمقود، وكان ذلك يحدث لأول مرة بمثل هذا التعاطف الذي أفتقده «أريد أن اقرأ كل ما كتبت»، فتعرّج سير السيارة مستجيباً لاضطرابي، وتمتمت بصوت مرتعشٍ أحاول أن أكون فيه طبيعياً «وستقرأين ما سأكتب».

ووجدتني أوقف السيارة، وأشير إلى ليلى أن تراقب مرور سرب كبير من الطيور يمرق كالشهقة العذبة من فوقنا، فقالت فرحة «أحرار يتحركون في الفضاء، يهاجرون ويعودون. هي الحرية»، فقلت لها ونحن نعاود المسير «وما هي الحريةَ عندك؟» أجابت بعد مدّة طويلة «أن يكون قرارك بيدك، أن يكون لك هدف تناضل من أجل تحقيقه وتصل إليه»، فتساءلت إن كان معنى الحرية هذا قديماً، فقالت ورنة الأسى تشبه الغيوم البيض

التي تناثرت في الأفق البعيد وقد بدأت بالظهور «التجارب المتلاحقة كانت مدخلاً للوعي بالحرية»، فانتبهت إلى اللغة الجديدة التي جعلت تتحدث بها ليلى، وقلت لنفسي إن قوة التجارب تصقل العقل حقاً. تابعت ليلى «كنت أسيرة فعرفت الحرية بعد المرارة»وتساءلت ببلاهة «هل أنت سعيدة الآن؟» فخرجت من بين شفتيها كلمات غامضة «الخروج من أزمة هي السعادة».

عند منعطف جبلي سألت فلاحاً يمتطي حماراً هزيلاً عن قرية (السلماوية)، وكنت قد التقطت الاسم عبر حديث جانبي مع رفاق قدامى، فتوقف مفكراً يحاول أن يستجمع معلومات ، ولكنه مالبث أن قال مشيراً إلى طريق ضيقة بين الجبال «يمكن أن تكون بعد القرية القادمة» ثم أضاف وهو يمضي بعيداً «اسأل أحداً على الطريق، فلابد أنه يعرفها».

وكانت الطريق مكللة بالأغصان، والأشجار العالية تحجب السماء أحياناً، وأصوات العصافير تحدث إيقاعاً نمشي ببطء على هديه. واستفسرنا من امرأة تحمل جرة ماء على رأسها تمشي بتوازن لفت إليه أنظار ليلى، فأومأت إلى الأمام بذراعها، فعلمت أننا نسير نحو الهدف. قالت ليلى «لم أعرف هذه المنطقة من قبل. هذا مكان يصلح للتفكير العميق».

وقال عجوز يرحب بنا عند نهاية أكواخ القرية المتناثرة على سفح الجبل «لايمكن للسيارة أن تمضي في الطريق الترابية وما علينا إلاّ المتابعة مشياً على الأقدام، فتابعنا المسير في ممرات نما فيها التراب والصخور الصغيرة تحذرنا في كل خطوة من التعثر بها. ودامت المسيرة أكثر من ساعة، كانت فيها ليلى تتكىء على ذراعي بين حين وآخر، فأتمنى أن يدوم ذلك طويلاً.

وبدت ليلى كالظل خفيفة تقفز بمهارة بين رؤوس الحجارة، وكأنها تدخل امتحان المشي على الحجر أو عبر المسامير. أهكذا يتوقف الزمن عند امرأة كليلى، فلا يلعب دور التغيير الذي يتقنه مع كل الناس؟ فتدخل هي لعبة التحدي فتظهر متماسكة حيوية جميلة مشرقة. الصبية التي أوقفت التيار بلمحة من أنوثتها التي لا مثيل لها.

وجدتني أتوقف مع نفسي، ألتقط أفكاري التي بدأت تذهب بعيداً لتتخيلني وحيداً مع ليلى في كوخ جبلي نشكل زوجاً من المحبين، تعطيني من حيويتها وأعطيها من وفائي وإخلاصي وديمومة رعايتي لها حتى النهاية. قلت لنفسي وأنا أتكأ على عصا وجدتها مرمية على السفح «هل يمكن للشيخوخة أن تعرف طريقها إلى ليلى؟».

فجأة هتفت ليلى فرحة «انظر ... أرى كوخاً على رأس التل» فغالبت أشعة الشمس بكفي وأنا أمعن النظر إلى بناء صغير وكأنه قبة حجرية تكلل مربعاً من الجدران ليتشكل أمام باصري بيت تسوره شجيرات صغيرة، فهتفت «يبدو أننا وصلنا»، وجعلنا نركض متسابقين باتجاه الهدف، وكأنها تملك اللهفة نفسها التي تتملكني للقاء الهادي.

- ٢٢ -

كانت قمة الجبل الصغير وهو يشب عن القمم المجاورة، شبه عارية إلاّ من تلك الشجيرات التي تحيط بالكوخ الحجري، وتناثرت أبنية بعيدة وكأنها تسعى دون حركة لتحيط بذاك المبنى. كأنما احتفظ ذلك الكوخ بوحدانيته أمام السماء المنكشفة بالرغم من غيوم الصيف العالية كنتف القطن المتناثر. انتظرنا واقفين لحظات نتوقع أحداً يخرج لنا، وبالرغم من نسيمات باردة كانت تلفحنا بين حين وآخر، كنت أحس بالتعرق كمن ينتظر مفاجأة ما. ناديت على الهادي ثم هتفت باسمه ملحقاً به اسمي، ومعرفاً بنفسي، فظهرت امرأة جبلية تغطي بحيويتها سني عمرها التي بدت كثيرة، حدقت في الغرباء، ثم تقدمت خطوة وهي تقول «من ينادي على الشيخ؟»، اقتربت منها وأنا أقول إننا أهله جئنا من البلد كي نطمئن عليه، فلم تجب بكلمة لأن شخصاً مهيباً ظهر من خلفها وهو يطيل النظر إلينا، وما لبث أن تقدم مني فاتحاً ذراعيه بشوق دلت عليه عيناه.

إذن فقد أصبنا في مسعانا، ولعب الحظ دوره في العثور على الهادي من أول محاولة، فهل يعني ذلك أن الله أمر باليسر في لقاء الأخوّة الذي كان حميماً ودافئاً، ووقفت ليلى تراقب عناق الأشقاء تظهر أقصى ما يمكن لها من فرح. همست في أذن الهادي وأنا مازلت متعلقاً به كطفل وجد ما أضاعه «اشتقنا إليك... اشتقنا». فإذ به يقابل شوقي بحرارة أشعلت رغبة في البكاء الذي منعتني عنه مشاعر الخوف من الضعف. قدمت له ليلى دون تعريف، فدعانا إلى الداخل فيما يشير إلى العجوز أن تقدم لنا شيئاً.

كانت غرفته وكأنها خصصت لاستقبال الزائرين والضيوف، مفارش ممتدة على الأرض، فخلعنا الأحذية لنتشارك الوسائد التي أحاطت بنا من كل زاوية. كان الهادي الذي تربع الأرض أيضاً، مسبل الشعر وقد غطى جانباً من كتفيه، فبدت طلعته كقديس قادم من غابة مباركة، وملأت لحيته الطويلة المخضبة بالشيب مساحة وجهه، فظلت عيناه النبيلتان تفتحان لنا نوافذ على أعماقه الصافية. وكان ثوبه الطويل الذي استقبلنا به يحيط به في جلسته نقاء وكأنه سيخرج لتوه من شرنقة بيضاء. وظلت ليلى تنقل البصر بين الأخوين كمن يعقد مقارنة لا أعرف مداها.

قال الهادي عن العجوز القوية التي قدمت لنا الشاي في كؤوس من فخار ثم خرجت «منّ الله علي بمن يعتني بي أينما رحلت. امرأة من القرية نذرت نفسها لتقوم على خدمتي»، ثم أعلن من جديد عن فرحته بلقائي. ولفتت نظري مجموعة من الكتب تناثرت على أرفف خشبية غطت معظم الجدران، ولمحت بعض العناوين الأجنبية على بعضها، فبدت الغرفة وكأنها مضافة لنشر معرفة ما، كما كان ترتيب الوسائد معداً لاستقبال زوار كثر. قلت للهادي « اشتاقت غرفتك اليك، أقصد مكانك في الدار، التي جمعتنا أطفالاً فهل يعود الماضي، وتعود إلينا»، وابتسم الهادي برفق «أنا ... حيث أجد نفسي». بت وحيداً في الدار، وليتك تفكر في أن نمضي بقية العمر سوياً، فقال معلقاً على شكواي «أنا بحاجة إلى نفسي يا أخي، أفكر بها وأبحث عن جواب مازلت أسعى إليه، فلبثت صامتاً بينما ليلى كانت تقول «عزلة مدهشة»، فقال لها برقة «ومن قال إنها عزلة».

بعد قليل أعلنت العجوز عن قدوم أحدهم، فقام الهادي لتوه مرحباً بالرجل الذي أطلّ علينا من الباب. كان في منتصف العمر، دخل الغرفة وكأنه من أهل الدار. قال الهادي معرفاً بنا وبالضيف «أبو علي من أصدقاء القرية المجاورة.

أظنكم مررتم بها». وكان الضيف أبو علي مديراً لشركة كبرى في العاصمة، وهو كيميائي انتهت خدمته فجأة لأسباب قاهرة، فعاد إلى أهله باليأس يرسم خطواته على الطريق إلى القرية، فكانت معرفته بالهادي نقطة انقلاب في حياته، فباتت أوقاته خلوة مع آخرين استقطبهم الهادي. فبت تواقاً لمعرفة السر.

سمحت لنفسي أن أتصفح أغلفة بعض الكتب، بينما الهادي يتابعني بنظراته وكأنه يتوقع مني أسئلة. قلت له «الديك حقاً موسوعة» فقال «وما زلنا نجهل» وتصفحت كتاب (تاريخ الإسلام) وكان بجواره كتاب بالفرنسية عن (معنى الإسلام)، ولفت نظري كتاب عن البوذية وآخر عن ديانة (الزن)، فرفعت حاجبي دهشة وأنا أسأل «عم تبحث؟» فقال بهدوء «عن الحقيقة».

دخل المجلس بعد قليل شاب ارتسمت على ثيابه بقايا التراب، وكأنه عائد لتوه من عمله الصباحي في الأرض. قبل كتفي الهادي، واتخذ له مجلساً بالقرب مني. قال الهادي مقدماً الشاب «ابننا صالح» فاكتفى الشاب بابتسامة رضية وهو يستمع إلى الهادي يقدمنا «شقيقي شاهد وهو كاتب معروف، والأخت ليلى».

قال الشاب صالح ونحن نتابع الحديث «ابتدأت بإنكار الله عندما انتقلت إلى المدينة لالتحق بالثانوية»، وأضاف مصححاً «لم أكن أنكر وجوده، ولكنني شككت بقوته. فقدت والدي بانهيار جبلي، ثم اختفت أختي الصبية وكانت وديعة جميلة، وقيل إنها اختطفت من رجل متنفذ، وقيل إن الضبع التهمها. لم نكتشف لها أثراً». وقال الشاب والمجلس يصغي إليه باهتمام متأثر، بينما الشيخ الهادي يتابع الاستماع برضى «وبالرغم من رعاية جدي لي وانشغالي بالدراسة، جعلت أفكر إذا كان الله موجوداً حقاً فلماذا ... » علقت ليلى «وفقدت يقينك!». هنا قال الهادي «أسعدني أن أتعرف إلى صالح، فكان التحاقه بمجلسنا فرصة لتعميق الشك في نفسه، فهتفت ليلى مستنكرة «تعميق الشك؟»، فقال الشيخ بوقار يحسم الحوار «الشك هو الطريق إلى اليقين».

كنت أتحين الفرصة المناسبة كي أنفرد بالهادي، أحادثه في الأخوة والعائلة، وأتطلع إلى إقناعه بالعودة إلينا، إلى أيام الطفولة والدار التي شهدت المحبة، ولكنه ما لبث أن نادى على العجوز فحضرت ليعلمها أنه وقت إطعام الضيوف، وتوجه إلي قائلاً «ستقيمون الليلة معنا»، فنظرت إلى ليلى استفسرها موقفها من تلك الدعوة غير المحسوبة، فإذ بها تقول «ستكون

لنا فرصة أكبر في التعرف على الشيخ أكثر»، فابتسم الهادي، وكأنه يعلم سلفاً موافقتنا على البقاء.

قال أبو علي متوجهاً إلي بالكلام «لابد أنك الأستاذ شاهد الشهيد! عرفت ذلك، تذكرت لتوي. أذكر أن حضورك كان قوياً، كتبك، الصحافة والتلفزيون، أحاديثك في الإذاعة. صحيح أني انقطعت عن المتابعة، لكني أدعو الله أن تكون مستمراً ومتألقاً»، وأكمل الشيخ «أخي الكريم، لم يسعفني الحظ لاقرأ لك، وإن كانت سمعتك قد وصلت فابتهجت. هي نعمة أن تطوّع اللغة لأفكارك، فأول الخلق كلمة. كل الأفكار منذ أول البشر وعبوراً في الأديان والعقائد التي انتظمت وجود الإنسان، كانت الكلمة هي مفتاح الحقيقة».

بعد لحظات دخل شابان يبدوان كطالبين في مدرسة، ما أن ألقيا بالسلام حتى اقتربا من الشيخ وانحنيا يقبلانه من كتفيه، ومن ثم يتخذان مقاعدهما بشكل آلي. فقال الهادي «أحمد ومحمد من أصدقاء مجلسنا الذي أكرمنا الله بالمحبة فيه. مازالا يتلقيان العلم، وهما يفيدان بالتساؤل الذي لا ضفاف له، فنتعلم منهما». وأخرج الهادي مجلداً من تحت وسادة كان يستند إليها بذراعه، ففتحه على صفحة معينة، وجعل يقرأ فيها بصوت خفيض، فانشدّت الأبصار إليه، فإذ به يسمعنا بصوت

جلي: «هل يعترف أفلاطين الذي كان يهدف أول ما يهدف في حياته وفلسفته إلى بعث الروحانية اليونانية العقلية وإحيائها بوجود قرابة بين روحانيته والروحانية الشرقية». ثم أكمل من عنده يخاطبنا «ومن هنا يبتدأ الخطأ في فهمنا لسر الروحانية. معظم الفلاسفة والعلماء والكتاب، تحدثوا عن ذلك الانقسام الجغرافي، بينما الكرة الأرضية جرم صغير في بحر الفضاء اللانهائي. المشاعر الروحية واحدة، لأنها ليست مختلفة وفق الأرض التي تقف عليها. الكون واحد، وطرق الإيمان المختلفة تؤدي إلى هدف واحد، هو القوة الكبرى، هو الله الذي لامفر من الإيمان به، فالنفس البشرية مهما تاهت فإن طريق خلاصها هو العودة إليه. هي تخرج منه وتؤوب إليه».

وجاء الطعام الذي تحلقنا حوله. كان مجرد صينية نحاسية من البرغل الذي تكوم كتلة مترعة بالاحمرار يقبع فوقها قطعة واحدة من لحم أبيض، أظنها لا تكفي إلاّ شخصاً واحداً. ومن حول الطعام ينتشر على طبق القش الملون عدد من الأرغفة الريفية، ومعالق خشبية أحاطت بالصينية. كانت رائحة الطعام شهية. ثم جاءت كؤوس نحاسية فارغة مع وعاء من اللبن الرائب، فلم تمتد يد إلى المائدة. قال الهادي وهو يفتتح الطعام «لنحمد الله على نعمائه وليتفضل الجميع، ومن تكن قطعة

الدجاج من نصيبه نعلم أنه قد امتلك الحقيقة، فهنيئاً له».
فامتدت الأيدي تغرف من تلة البرغل، فلم تظهر على أي من أهل المجلس علائم جوع أو نهم، وكأنهم يأكلون طلسماً يرغبون في التعرف إلى ماهيته. كان هذه أول مائدة غريبة من نوعها، أجلس إليها، أراقب العفة التي قادها الهادي فتبعه رجاله وكذلك ليلى، وكنت أيضاً من الذين خضعوا لظاهرة العفة تلك. بعد قليل توقف الجميع عن تناول الطعام يحمدون الله بخشوع، بينما قطعة اللحم وحيدة تتربع بقايا البرغل.
أدركت بعد حين أنّ العفة لم تكن في الانسحاب من المائدة دون شبع، بل تجاوزت ذلك إلى العقول وهي ترفض أن توسم بالكمال الذي حدده الهادي ببلوغ الحقيقة، أو أنه الخوف من أن يقال عن أحدهم أنه يظن نفسه تفوق على غيره من الآخرين.

قال الهادي يخاطبني «أحمد الله أنكم حضرتم اليوم وهو موعد الظهيرة الذي نضع فيه فكرة نناقشها مساء الغد، وأظنك يا أخي ستضيف لنا شيئاً نعلم أنه مفيد»، فأجبته بأنني لم أتوصل بعد إلى شيء في حياتي، سوى أنني بدأت اهتم أكثر بتاريخ البلد وسلوكه، وقالت ليلى إنها مازالت تبحث عن جواب لأسئلة تكاثرت عليها، فقال الهادي «هوذا سر بقائي

هنا، أو في أي مكان أرحل إليه، أن أجد الأجوبة الشافية».

تساءلت، وقد بقينا نحن الثلاثة لوحدنا «أهي جلسات فلسفة أم حوار حول الدين؟» فأجاب الهادي «الحقيقة كالبلورة الكريستالية، جوانبها كثيرة، الفلسفة، الأديان، العلم، المعرفة بشكل واسع، الشك. كلها تشكل جوانب تلك البلورة، عشرات الأوجه تتساند لتدلنا على الجوهر». وأضاف قائلاً «كيفية النظر إلى تلك البلورة هو أول الخطوات».

في المساء، كنا نتسامر تحت شجيرة دلب انتصبت بعيداً قليلاً عن الكوخ، كان النسيم الجبلي يشد العزيمة. بدا الهادي نحيلاً ولكن عقله المتوثب ساعد على منحه حيوية لم تمتصها اللحية الوقورة. ولم يؤثر الهدوء الذي انتشر كالضباب الخفيف الذي سيغمرنا صباحاً على اندفاع الهادي، وهو يعقد المقارنة بين المدن الكبيرة والصغيرة، وبين رؤوس الجبال والصحراء التي ينجلي فيها البصر وتتألق البصيرة. كنت تائهاً فوجدت الطريق، وهاأنذا في أوله. هكذا قال الهادي. فوجدت نفسي مع ليلى نهتف «وأين نحن؟».

- ٢٣ -

تحركت السفينة اليونانية من مياه اللاذقية مع بداية اليوم، فكانت الشواطىء التي أراها لأول مرة عن بعد ترسم خطاً حاداً في صفحة الرؤية. وكانت مياه البحر صافية تعكس أشعة الشمس التي مازالت باردة، فتصارع الحنين للأهل مع الشوق إلى عالم جديد. كان اليوم الأول خريفياً ترتفع فيه الحرارة ساعة فساعة، فيتسارع قلبي مع تغيرات الشمس في صفحة السماء، وهبطت الأحلام القادمة مع قدوم الليل، فجاءت نسائم الليل تلفح وجه الهادي يقف في مقدمة السفينة على السطح، وكأنه يركب سهماً مندفعاً باتجاه المستقبل المشرق، فتنبعث الأشواق إلى عالم قادم فيه المفاجآت التي طال التطلع إليها. لجأ إلى نور معلق في أحد أعمدة السطح لمتابعة القراءة في كتاب لسارتر ظهر حديثاً، فتتداخل الآمال التي ملأت جوانحه بقلق مبهم لم يجد له تفسيراً.

وكان سطح السفينة في اليوم التالي يعج بالركاب من كل جنس، تملأ وجوههم نشوة السفر، فلم يختلط بأحد. كان

الهادي شاباً تمور في مخيلته صور عن الأيام المقبلة، فهو سيكون في باريس بعد أيام، وسيغرف من جمال النساء اللواتي عششن في رأسه كالجنيات الساحرات، وسيتلقى هناك علوماً جديدة ومعارف سمع عنها في السابق، فأصابه تسارع التوق إلى كل ما لم يصادفه أو يعرفه من قبل. وجعلت فتاتان علم أنهما من اليونان، تتقربان منه، تحادثانه بانكليزية لم تسمح له باستكمال الحوار معهما. كانتا ناعمتين، فقرر الابتعاد عنهما خوف انكشاف جهله أو ضعفه، آنذاك اتخذ قراراً في أن يتقن أية لغة. أحس بالعجز أمام العالم وهو يخرج من بلده، فصمم على تحدي العزلة.

وبدت مرسيليا في صباح غائم وكأنها بوابة مزخرفة تُفتح له كي يدخل بلاداً غريبة، لكنها كانت قد ارتسمت في مخيلته وهو يقلب الكتب والمجلات المصورة باحثاً عن جغرافيتها التي سحرته، وجاءت السينما لتزين له ذلك السحر، وتجعل منه حلماً يسعى إليه. وأحس بالتهيب وهو يحمل محفظته الثقيلة وقد حشتها الوالدة بالملابس الثقيلة تفادياً لبرد أوربا المتوقع، وتوجه إلى محطة القطار، وفي المحطة كانت ساعة الانتظار مشحونة بالتوق إلى باريس مدينة النور والتي أحس قبل أن يراها أنها ستكون بلده.

ويتأجج تطلعه إلى الهدف مع هدير عجلات القطار عبر المزارع والمدن والقرى، ويتابع القراءة في كتابه تفوته كثير من الأفكار مع انشغاله بين حين وآخر، وتظهر على سطح روحه فقاقيع لا يلبث حين يخلو إلى المناظر المتعاقبة التي يمرّ عليها القطار حتى تغمره أمواج من فرح شاب مقبل على حياة غنية بكل شيء، فتهمد فقاقيع الأفكار القلقة.

ويدخل القطار المحطة المغطاة بمظلة حديدية هائلة، فكان اللون الرمادي يغطي المشهد من قطارات وبشر وأعمدة فانقبض القلب، وتسلل الدخان إلى الرئتين، فاستيقظت صورة حلب الوادعة الصاحية السماء كإشراقة طفل. تذكر حديقة مدينته التي كان يتردد عليها بانتظار رفيق أو (صبية عن بعد) تعودت أن تقطع الحديقة إلى مدرستها، فيتبادل النظرات معها، ثم يمضي كل منهما إلى طريقه. وكان ينزوي في ركن على مقعد خشبي يقرأ كتاباً من تلك التي بدأت تغزو السوق عن الاشتراكية، أو عن حركات شعب يحارب ضد استعمار أجنبي، أو عن الوجودية التي فتنته. لم يكن من الأوائل في المدرسة، فلم تسمح علاماته في البكالوريا بدخول كلية لائقة، فخيره الوالد بين الأعمال التجارية الرائجة يعمل فيها أو الدراسة في البلد الذي يحب، فاختار

فرنسا وقد تشبع بالأفكار عنها كدولة بساطها الحرية وحدودها التحرر من كل شيء.

ويستقر في غرفة عالية من عمارة عتيقة من أبنية الحي اللاتيني الذي سعى إليه دون غيره، ويضع لنفسه خطة صارمة، التهمت ليله ونهاره، لاتقان اللغة، وستساعده معرفته تلك باللغة أن يتابع دراسة الطب، فكان طالباً مجتهداً على عكس أيامه في بلده، وبات من المتميزين في سنته الأولى، إلى أن تعرف بجار قادم من الصين يعلم الفلسفة في الجامعة، فتحولت لقاءاتهما شبه اليومية إلى صداقة بين معلم وتلميذ. جعل يقرأ لي في كتاب (كونفوشيوس) الذي يقودهم إلى الحكمة، ثم أهداني نسخة من كتاب عن ذلك الشيخ الصيني الذي دام تأثيره قروناً، ليمتد أثره إلى نفسي. ثم تجمعني المصادفة بشاب فيتنامي توزعت حياته بين الكلية التي يدرس فيها الهندسة وبين مكتبته العامرة في غرفته المتواضعة، فيقدم لي نسخة من (طريق الفضيلة) وهو كتاب شاعرهم الحكيم (لاوتسي)، فوجدتني أحفظ معظم مقاطعه، متسائلاً بين حين وآخر عن رموز تكمن وراء كلمات لم تستطع اللغة الفرنسية أن تفصح عن جلاء جوهرها. وظلّ التواصل قائماً

بيننا بالرغم من عودته إلى بلاده، لتنقطع أخباره عني مع تصاعد الحرب هناك.

ووجدت عقلي ينجذب إلى الشرق، بل لنقل إلى المشرقية في كل أبعادها، فآثرت متابعتي لها على دراسة الطب، وإذ بي في السنة الثانية أقرر الانتقال إلى دراسة أخرى، فأختار تاريخ الأديان. وفي لحظة القلق تلك توثقت علاقتي بطالبة تدرس الفنون الجميلة مختصة بالديكور، وتثير الجنون بأساليب إغوائها الهادئة. لم أكتب إليكم عن تحولاتي. غرقت في الاهتمام بشؤون الكون وموقف البشر من القوى التي تتحكم فيه، ولم يمنعني ذلك عن الغوص في العلاقة العاطفية الطارئة على مسيرة حياتي. لا أنكر أني كنت غض الإهاب في علاقاتي بالمرأة، ولكنها مع (ايلين) كانت شيئاً كالحب اللزج الذي التصق بي كالجلد يكسو الجسد، فكانت يوماً فيوماً تمنحني متعة التعلق بالحياة.

كانت ايلين قد قدمت من كروم الجنوب الفرنسي، تلبسها مشاعر الانفتاح على كل شيء، كشجيرة العنب تفتح أذرعتها للشمس والريح فتحمرّ ثمارها. كانت في رقة الليالي الصيفية التي شهدناها على سطح دارنا القديمة، تتنفس النور والظلام بحيوية لم أشاهد فيها سوى تجلي القدرة الإلهية على الديمومة.

كتبت لها ذات مرة اسمها بالعربية فبهرتها الحروف المنتظمة، وقلت لها أنت من (الليونة) تتشكلين كما الفصول تفعل في الطبيعة، ولا أستطيع أن أبتعد عنك لأني كلما عرفتك أكثر عرفت الكثير عن الطبيعة، وليكن أني عرفت عن الكون الذي مازلت أسبح في ديجور ظلامه.

وابتدأت مرحلة جديدة مع شيخ الجامع في باريس وهو يعقد قراننا، فجعلت من بعد تلك اللحظات أتردد عليه في مكتبته الملحقة بالجامع. كان مغربياً فأفرد لي من وقته ساعة في كل أسبوع يحدثني عن الإسلام، عن الزوبعة التاريخية التي اكتسحت رمال الصحراء لتنشر جوهر الدين كالرمل المحمول برياح العقيدة الجديدة إلى كل أرض. وإذا كان انتشاره عبر مئات السنين قد وصل إلى أرضٍ غريبة كالتي نحيا عليها الآن، فلأنه مقبول من روح البشر. وقال الشيخ المغربي إن الإنسان المغلق لا يستطيع أن يميز النور من الظلام، بينما ذلك الذي فتح الله عليه فحياته نور ولا يرى سوى النور.

وكنت لا أرى ايلين إلاّ نوراً أضاء حياتي، فحاولت أكثر من مرة أن أضيء لها الطريق كي تؤمن بما أؤمن به، فتقول بعذوبة «أليس حبنا هو النور؟» فاختلط دعائي في صلاتي من أجل

الرضى الذي أطلب دوماً بهداية زوجتي التي ظهرت عليها بوادر الحمل.

قالت ايلين ذات مرة «ما رأيك باللون الأبيض؟» فقلت «يعني الصفاء» اللون الأبيض هو حصيلة الألوان الأخرى، إذا ما مزجتها بعضها ببعض ستكون الحصيلة ذلك اللون الأبيض. وأضافت بأن هذا من الأساسيات التي تعلمتها في الجامعة، وهو ما يجب أن تعرفه أنت ايضاً وأنت تصلي للإله». قالت لي إن الاله واحد والطريق إلى الإيمان به مختلفة. ومن اللون الأبيض ابتدأ خيط التواصل بالتشابك لحمة واحدة مع خيط الحب الذي انغرز بقوة في نسيج حياتي. ولكن الحياة اليومية جعلت تتأرجح من تدهور حالتي المادية، لم أستطع أن أخبركم عن أسرتي الجديدة، فدفعتني الحاجة إلى العمل في مطعم أخدم فيه، وتركت الدراسة على أمل العودة إليها لاحقاً.

كانت ايلين تتقدم في دراستها، فتفاجئني كل مدّة بمشروع على الورق تثير خطوطه وألوانه توازنه الهندسي الرغبة الملحة في خلق توازن داخلي. كانت بطنها تتقدم إلى الأمام، فازداد عندي الفضول المحب لمعرفة بداية الخلق في الطفل القادم. ووقر في يقيني أن الكائن المقبل على الدنيا يحمل خصائص الكون. وبالرغم من نظرتي المشوشة لهندسة الكون البديعة،

اكتملت نظرتي إلى البنت التي أطلت على الحياة متوازنة، يتعادل فيها جمال البنية مع البكاء الذي كان شكلاً من أشكال التمجيد للخالق، وانسجاماً مع الضوضاء غير المسموعة تحدثها الكواكب والمجرات في مسيرتها اللانهائية.

لا أستطيع أن أقول إنها كانت رضيعة جميلة وحسب، بل كانت شكلاً كاملاً للكمال الذي لم أستطع أن أستوعب مقاييسه من قبل، وكان التحامها بصدر أمها السعيدة يفجر في أعماقي فكرة التحامي بالكون الذي لا حدود له، ويقربني من مفهوم المطلق الذي لم أستوعب ماهيته بعد، وقد لا أفعل.

كرست حياتي لطفلتنا (عائشة) التي لم تستطع أمها أن تتعلم اللفظ فتناغيها بـ (آيش)، ولطالما ابتسمت ايلين وهي تكرر نطق الاسم على طريقتها. وبينما هي تتابع دراستها في الجامعة، كنت أتابع كسب العيش بنشاط أكبر، وبالرغم من انقطاعي عن الدراسة، فإنني لم أنقطع لحظة عن القراءة في أية لحظة متاحة أو مسروقة من أوقاتي المزدحمة. كنت أقول لنفسي مادام هناك مسؤول عن الكون يدير شؤونه، فأنا ملتزم بكوني الصغير، أرعاه وأعنى به تمجيداً للخالق.

ذات يوم. كان يوماً فاصلاً أو أنه كان تنويعاً على يوم له

شأنه. كانت اللحظة هائلة حفرت في نفسي علامة لايمكن لها أن تنسى. وكانت زيارتي الأسبوعية للعيادة حيث يتم كشف دوري عن عائشة التي بلغت عامها الأول منذ أيام، فقامت العيادة بإجراء فحص للدم بعد أن لاحظت المسؤولة هناك ظهور بثور دقيقة على جسد الصغيرة وفي مواقع معينة. وتأتي النتيجة مستغربة بل كانت صاعقة زلزلت كيان الأبوين، فصاحت ايلين مكذبة، وجلست أنا باكياً، فالطفلة الجميلة مصابة ببداية نوع من الورم الخبيث في دمها.

هل يمكن للنظام البديع أن ينكسر في أجمل حلقاته؟ وتساءلت في جنون وأنا أراقب انزواء شعلة الحياة يوماً فيوماً. هل للوراثة دور في الظهور المبكر لهذا المرض عند طفلة بريئة لم تعرف الإثم بعد؟ وظلت ايلين ذاهلة، ولكنها لم تنقطع عن إشعال الشموع في الكنيسة كما لم تفعل من قبل، وأصبت أنا بجمود في كل لحظات الإيمان. كان العلاج قاسياً، والأطباء يصرحون بأنها حالة نادرة أن يصيب هذا المرض طفلة صغيرة.

وقال رئيس الأطباء يواسيني «إنها إرادة الله يا بني». وعندما توقفت أنفاسها صرخت في ردهة المشفى «ما عدت أؤمن بشيء».

كانت ايلين تصيح ونحن نعود من لحظة الوداع الأخيرة «لقد أسلمنا ابنتنا لتجاربهم البلهاء. الدواء هو الذي قتلها» وأصغيت بالرغم من حزني الجنوني إلى تصريح زوجتي «لم يختارني الله لامتحاناته؟» وأفلتت منها جمل لملمتها، لأكتشف أن أختها ماتت بالمرض نفسه ذات يوم، فثار الحقد في نفسي أحملها مسؤولية ضياع ابنتنا التي كانت مفتاح الأمل.

وتتابعت الأيام التالية أكثر جموداً من ثلج باريس يغطيها ويغطينا، فتحولت عواطفنا إلى صقيع، ما لبث أن ذاب مع تقدم الزمن المتسارع، لاكتشف حقيقة جديدة هي أني سأظل وحيداً بعد أن اختفت ايلين في بلد بعيد، علمت أنها تعمل فيه تحاول النسيان، وكأن رحيل الأحبة ينسى!.

- ٢٤ -

رحلت إلى قرية جبلية في الشمال، أخدم الأبقار فيها. تركت بهجة باريس التي تحولت إلى كابوس، فكان نهر (السين) أفعى ملساء تلتف على عنقي، وهوى برج (ايفل) الحديدي على رأسي، ويبست أشجار غابة (بولونيا) السامقة. باتت الفوضى في مدينة الظلام باريس شبكة رماها الشيطان عليّ، فتملصت منها ورحلت.

كنت أغرق في العمل منذ الفجر وحتى غروب الشمس، فلم أعرف للنور حركته الدورانية. كان نبيذ المزرعة يحملني مع الظلام إلى فراشي في مخزن القش، فأغرق في النوم لا يقرب مخيلتي الجامدة حلم واحد. وكان يشاركني العمل والمخزن عامل آخر علمت أنه من جزيرة في الشرق الأقصى، فأدهشني أنه ما أن يحل الليل حتى يجلس في فراشه يقرأ في كتاب على ضوء قنديل يضيء له صفحاته، فيكون غارقاً فيها ساعة أو أكثر، ثم يستوي قاعداً عاقداً ذراعيه مبتهلاً كناسك يتمتم بلغة لا أعرفها، ثم تنحني قامته احتراماً لشيء

لا أراه، ثم يطفىء قنديله ويرتمي بسلام على فراشه منهياً يومه الصعب باستسلام عجيب . وذات مرة، بعد أن عدنا سوية من الزريبة متعبين كالعادة، قال لي ونحن ندخل مخزننا الليلي «ما هي صلاتك؟» فضحكت ساخراً أتساءل عن معنى الصلاة، فقال ببساطة إنها عزاء له لم يجد وسيلة سواها، ومن جديد قال «لابد أنك تفعل شيئاً ما يجلب لك الراحة» فقلت «الصمت هو الراحة»، فعلق بابتسامة «هي البداية الطيبة». ثم هتفت وأنا أستلقي «وما نفع الصلاة... ولمن نصلّي» فقال «أليس لك إله تعبده؟» تمتمت بالعربية فلم يفهم ما أقول «هل أصلي لمن عذبني وقهرني؟»، فتكرر سؤاله قبل أن يبتدىء طقسه اليومي «أليس لك شيء تصلي له!»، فلبثت صامتاً أغلق عيني ليكون ثمة ظلام دامس.

وأمضينا إجازة الأحد بين أشجار التفاح نمشي دون توقف. كان يتحدث بلاانقطاع، وأنا أراقب تراب الأرض، ثمة برودة منعشة أيقظت أذني لكلماته.

كان الملك قد رزق بغلام، فقال له حكيمه ناصحاً أن يحذر، فإذا ما وقعت عينا هذا الطفل على مريض أو ميت أو شيخ، فسيعتزل الدنيا، وقال له إن ابنه سيهيم في أرجاء الدنيا. ذعر الملك وشيّد لابنه قصراً فيه كل وسائل الحياة الهانئة الوديعة والسعادة، وحين كبر الفتى زوّجه من امرأة صالحة،

وأمر حراسه أن يمنعوا عن عينيه رؤية أي من أولئك الذين أشار إليهم الحكيم محذراً.

أكمل الرجل وهما يفترشان التراب، إن الشاب خرج يوماً من مقره ليصادف في الطريق شيخاً قصم الدهر ظهره، فحملق تملأ عينيه الجميلتين دهشة من الذي يراه، فسأله عن أحواله ملاطفاً، آنذاك علم أن نهاية الشباب هي الشيخوخة، ثم أنه سيعلم عندما يلقى عليلاً أنّ المرض يعقب الصحة، وما لبث بعد ذلك أن رأى جثة فتأملها، وعلم أن الموت هو نهاية الحياة، فهجر قصره المنيف ولحق برغبة تملكته: أن يعرف الحقيقة. وسيقضي حياته بعد ذلك في تعليم البشر فلسفة السعادة والنجاح وسر الخير وكبد الحقيقة. وقال قبل لحظات من الموت الذي اقترب منه بشدة «تعلموا أن عاقبة كل مركب الانحلال، ونهاية كل موجود العدم، فاسعدوا واسعوا في سبيل الحقيقة». بوذا هو المعرفة، وأنا أصلي لله كل يوم. فلمن تصلي؟ قال الرجل الأصفر ذلك، ينتظر جواباً لم يأته.

وعدنا إلى المزرعة نتناول الغذاء على مائدة مالكها، كعادتنا في الآحاد، وقد رفع الكأس في مجمع الأديان التي تحلقت حوله. قال في نخبه «مسيحي كاثوليكي هو أنا» وأشار إلى زوجته البدينة «بروتستانتية»، وإلى أخيها الذي يشارك كلبه طعامه «لا يؤمن بشيء» وإلينا «مسلم وبوذي»، وأضاف «في

قرية جبلية بعيدة عن المدن الكبرى والمعابد التي ترتفع فيها، تجتمع أديان مختلفة، وتجمعها خدمة الله والأرض ومن عليها. ألا يستحق ذلك نخباً؟». وتساءلت وأنا أنهي النخب «وهل الذين لا يؤمنون بشيء يتبعون ديناً ما؟»، فضحك المالك ليهتز كرشه ويتورد خداه «كل منا يرى الكون على هواه، وهو حر فيما يراه، ثم أضاف باستسلام من يصلي «ولكننا جميعاً من مخلوقاته الضعيفة».

غادرت القرية يوم ولدت بقرة. كان البيطري يساعد العجل على الخروج من بطن الأم بصعوبة، فإذ بالحيوان يطلّ علينا، وما يلبث أن يوازن جسده بقوائمه الناحلة، ثم يتعثر، ليركض من بعد ذلك، وكأن الحياة دبت في ذلك الكائن قبل أن أدرك ما يجري أمام باصري. اعتذرت بأني مرتبط بمهمة، فغادرت. كنت ما عدت أطيق الاستمرار في ظلّ تلك المحاصرة الروحية. أخذت القطار إلى مصنع للمصابيح الكهربائية بالقرب من (ليون)، يطلب عمال تعبئة، فالتحقت به وأنا أمنّي النفس بأن المكان الجديد صناعي، ولا يعبأ بأية حوارات حول الإيمان، وسأخلو فيه إلى صمتي الذي اعتدته.

وفي المصنع كانت تنتظرني أحداث جديدة، فبعد أيام استدعاني مدير الصالة ليقدم لي رجلاً في منتصف العمر تشع

عيناه بذكاء لا ينسى. قال الرجل وهو فيزيائي يعمل مستشاراً للمصنع «يذكر المدير أنك فرنسي جذوره من الشرق الأوسط. هل أنت مغربي؟» وأضاف عندما عرف بهويتي إنني من منطقة احتضنت الحضارات المتعاقبة وكانت مهداً لأديان مهمة، وهو يريد أن يعرف أكثر عن منطقتنا ويسره أن يلتقي معي دوماً.

في بيت الفيزيائي الوثير كان احتفاؤه بي مثيراً للقلق. قال إنه قرأ الكثير عن بلادنا، ففتنته المكتشفات التي تدلّ على عراقة التاريخ وتعتق الزمن. قال إننا بلاد الضوء، ويبدو أن الضوء قد خلق ويخلق حماسة لمفردات الطبيعة كي تعطي أقصى طاقتها، وقد يتسبب أحياناً في كسل يتسلل إلى الطبيعة، بما فيها البشر، لتكون غيبوبة تمتد أحياناً إلى قرون عديدة، ولكن لابد من اليقظة مادام هناك نور.

قال لي إن دراسة الفيزياء وبخاصة دور الضوء في الحياة، وهو الذي ستبقى سرعته الثابتة الحقيقة الوحيدة المتفق عليها، قد قاده إلى لهفة لمعرفة النور وكل ما يقع عليه الضوء ويكشفه. لقد بات همّه الآن في التعرف إلى الإنجازات الإنسانية التي لامسها الضوء أو أنها تنتج النور، أي نور. وهذا ما يقوده إلى مزيد من معرفة الأديان التي ساهمت في تحويل النور إلى قيمة فعالة تساعد الروح على إدراك الحقيقة. إن القوة

الكبرى تكون في تصنيع النور في النفس، ليصنع طاقة عظمى تزيد من تألق الأفكار والمعتقدات. إنه الإيمان الأمثل.

أصغيت، وانتبهت، وتحول صمتي إلى فجوة عميقة ما لبثت أن امتلأت بالتوق إلى معرفة أوسع بالآراء التي يطرحها رجل الفيزياء. قلت له فجأة «وإذا أظلمت الروح»، فقام فجأة إلى مفتاح النور يطفئه، فساد ظلام دامس، وهتف ضاحكاً «عندما تظلم من حولك تظل طاقتك تجاهد لتعادل الظلمة بنور داخلي» قال بثقة:

- لابد أننا نختزن النور لأوقات الشدة، أو أننا نملك الإرادة لتوليد نورٍ ما وهكذا لم تمر دقائق، إلاّ واستطعت أن أتبينه واقفاً أمامي، ومن حوله ينتشر الأثاث واضحاً، وكأن نور المصابيح الموزعة في كل الأركان بدأت تعطي رؤية جديدة بالرغم من انطفائها. قال وهو يعيد نور الكهرباء عبر المصابيح «ترى أيهما أشد، أنوار الكهرباء أم أنوار عقولنا وأرواحنا؟»، وأفلت مرحاً بقوله «قدومك من الشرق، جعلني أتعدى على الفلسفة. أهي العدوى؟».

كان لقاءٌ يحفر في النفس، أعاد إلي الرغبة في العودة إلى القراءة، لكنها رغبة واسعة، فوجدت نفسي تبحث عن كتب في الفيزياء والمنطق، وكنت أسافر إلى المدينة القريبة أحياناً،

فأشتري كتاباً في الرياضيات أو الفلسفة. وابتدأ اهتمامي جغرافياً بكثير من الأديان والمعتقدات، وباتت لي سبل لمعرفة ديانات مصر القديمة واليونان والشرق، وأصبح لي لهف فياض للتخلص من الصمت الأصم. وعندما غادر صديقي الفيزيائي لتسلم عملٍ جديد في أمريكا، ودعني بحرارة وصلت روحي، فتركت المصنع عائداً إلى باريس.

كانت المدينة المتسعة تمتد من حولي، وكأنها ترحب بي، فكانت المكتبات واحدة من الأماكن التي اجتذبتني إليها، وبت أعيد أكتشاف مواقع لم أكن أعرفها من قبل، فرأيت في (اللوفر) مثلاً حاضنة لذكريات البشرية في دهشتها وتفاخرها وتواضعها. وكان انقطاعي الطويل عن الجامعة دافعاً لإلغاء إمكانية العودة إليها، فازداد عندي الميل إلى جغرافية أوسع. تجولت في الكتب والمجلات عبر (فارس) لأعرف أكثر عن الزرادشتيه، وانتقلت بروحي إلى (الهند) لأعرف عن الهندوسية وديانة (السيخ)، ونبشت معارف منسية عن (المانوية)، وعدت لأقرأ الكثير عن (البوذية). ولم أتردد في متابعة كتب وأبحاث كتبها مستشرقون وعرب عن الإسلام والمسيحية وكذلك اليهودية.

كنت أكاد اغرق كلما سبحت في مياه الأديان والأفكار، وعندما وقفت مصادفة أحيي الشيخ المغربي الذي انقطعت عن جامعه. سألني عن غيابي، فقلت بأني أعيد النظر في نفسي فنظر إلي باستغراب وقال «مثلك لايداخله شك أو تردد»، وقال متسائلاً «الن تعود؟»، فهززت برأسي وكأني أقول له «قريباً».

ونظرت اليّ في المرآة الكبيرة التي وضعتها صاحبة الغرفة على الحائط قائلة أنها تساعد في توزيع الضوء القليل الذي يدخل من النافذة، وبهذا أقتن في استعمال الكهرباء. كان وجهي في المرآة صافياً لأول مرة منذ سنين، وقد اعتدت عليه متجهماً فقد نعومة الرضى. أخذت قراراً في أن أستغلّ فراغ الوقت بعد العمل اليومي في ملاحقة القراءة، فقد احتلت الكتب معظم مساحة الغرفة الصغيرة، وكانت كتلها المتناثرة تزداد بشكل مضطرد.

وابتدأت السكينة تتنزل على روحي كلما انتهيت من كتاب أو عاودت قراءة بحث سابق، أحسست بأن فراغ صمتي القديم قد أضاع عليّ متعاً، لأن معرفة شيء جديد كان الدواء يمسح على جراحي القديمة ويخفف شيئاً فشيئاً من صمت الفراغ المريع الذي وقعت في جبّه.

- ٢٥ -

عثرت على كتاب بالانجليزية، يحكي عن ديانتين هنديتين مجهولتين ومحصورتين في أقاليم صغيرة، فالتحقت بدورة لتقوية اللغة الانجليزية، وبات وقتي مشغولاً بعد الانتهاء من عملي الجديد كمترجم في صحيفة نسائية، وكنت الوحيد الذي يقدم ما يتعلق بالمرأة العربية والمسلمة، فباتت لي الفرصة متاحة لمزيد من المقارنة بين نساء العالم، وإذ بهذا الموضوع يفتح أمامي آفاق المقارنة بين الأديان نفسها والتي تتباين مواقفها من المرأة. كون عجيب لا يكفي عمر واحد لمعرفة أسراره.

علمت أن الهندوسية دين بلا عقيدة محددة. هي تخصّ الهنود وأسلوبهم في الحياة، فمن عبادة الجماد والنبات إلى ما يتعلق بالتجريدات الفلسفية، كانت تلك الديانة أشبه بالأسفنجة تمتص تراثاً بالغ القدم ،وقد تكوّن عبر الإيمان بجميع الآلهة المحلية. كانت مشكلة الموت هي بداية الفلسفة التي تشرح كذلك علاقة البشر بالله. وستتجلى حديثاً في تفكير

(المهاتما غاندي) في رفض العنف، وهكذا تصبح الديانة فاعلاً في تطوير السياسة أيام الإستعمار البريطاني للهند. ومن المؤسف أنّ هندوسياً هو الذي اغتال المهاتما. وسألتقط فكرة (محبة الله) التي أشاعتها تلك الديانة، وأنّ الخطاة الذين تابعوا وأحبوا الله، يطهرون أنفسهم وأهلهم أيضاً، وساهمت أناشيدها في انتظام روحي، التي مازالت تحمل آثار القلق العميقة.

علمت أن المعلم الأول لطائفة (السيخ) وهو (ناناك)، قد عبر عن فهمه لله أنه لا شكل له وأنه أزلي ولايمكن وصفه، وهو حاضر في كل مكان، ويمكن لعين المرء المتيقظ أن تراه في كل مكان، أي أن على الإنسان أن يكون قادراً على رؤيته بعين داخلية، وهذا هو طريق الخلاص. لكن الوضع البشري هو العقبة في ضلال الناس، لأنهم يوالون ذاك الوضع، وهكذا هو الذي يسجنهم داخل دورة تناسخ لانهاية لها من الميلاد والموت. لذا فمصير الضال الذي لا يتوب هو الانفصال الدائم عن الله.

وستمدني اللغات التي اقرأ فيها، يد العون في مزيد من المعرفة لحركة الانسانية الدائبة عبر كل مناطق الجغرافيا المختلفة، من بدائية كقبائل استراليا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية،

التي دفعتها الغريزة الأولى إلى اكتشاف موقعها الأرضي الضيق من السماء الواسعة. وهكذا تنمو رغبة البحث التي لن تتوقف. وسيدهش شيخ الجامع الباريسي مع توسع ملاحقتي لحقيقة الكون التي قد تشوش على رؤيتي لحقيقة الإسلام، ويرفع حاجبيه عندما أقول له «كل الطرق تؤدي إلى الله».

ثم تجمعني المصادفة في حانة صغيرة مع (ايلين) المختفية منذ سنوات. كانت بصحبة مجموعة من الشباب نساء ورجالاً، يخلقون ضجة ومرحاً، فتلاقت أعيننا لنتجمد عند لحظة اللقاء. استيقظ الحب بين ركام السنين التي انهالت عليّ بقوة، فإذا بها تتقدم مني وكأنها فارقتني لتوها، في لحظة وجدٍ خاطفة، وتقول بطفولة أنها سعيدة برؤيتي، وإن كانت قد فوجئت بخطوط الزمن قد فعلت في وجهي. سألتني عن أحوالي ودراستي، عن حياتي في مجملها. قالت إنها تعمل في مكتب بالقرب من (مونبلييه) وأنها في إجازة تقضيها مع الأصدقاء، وهي تتمنى لي السعادة، وما لبثت أن عادت إلى جماعتها. همدت حمّى الذكريات، وبردت عاطفة كانت قطعة من نار متقدة، فمشيت على الجسر لأتوقف في منتصفه أراقب جريان (السين). قلت لنفسي «اعلم أنّ النهر لا يمر مرتين أمامك» وتساءلت إلى أين أمضي، وأجبت نفسي «لابد من هدف».

توجهت نحو كنيسة (نوتردام) التي طالما وقفت أتأمل معمارها الجميل، وواجهاتها المطلية بالزخارف المدهشة، حجارة توحي بالخشوع، ووجدت نفسي أدخلها لأول مرة في حياتي، فيغمرني الضوء المتسلل حزماً ملونة متفرقة من السقف العالي، ولم أتذكر آنذاك سوى رجل الفيزياء، الذي تسللت كلماته إلى روحي، فلم تسحبني من قوة تأثيره سوى نداءات (الأورغ) يتردد في الأرجاء، تزداد فخامته مع معانقته لخيوط النور في العتمة الجليلة، فانكشفت لي جوانب المكان واستسلام المصلين كل يحمل توسله في ركوعه، وإذا بي أتمتم من سورة (التغابن) ما تيسر «يسبح لله ما في السموات وما في الأرض، له المُلك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير. خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير. يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور».

هتفت مطأطئاً برأسي صدق الله العظيم، لأخرج متباطئاً من المكان، كأني اجرّ استسلامي لقوة سحبتني بليونة لأقف من جديد على الجسر القريب، فإذ بالماء يتدفق راكضاً لا أستطيع أن أتابعه بعيني الكليلتين. ومرّ زمن علي واقفاً في مكاني دون

حراك، فاقتربت عجوز تدبّ على عكازتها، فوقفت عندي بعد مرورها علي خطوات لتعود إليّ. تأملتني لحظات ثم هتفت «أيها الشاب لا تفعلها» فتساءلت خارجاً من تأملي «ما الذي أفعله يا سيدتي؟». فقالت محذرة «إياك والانتحار، فهو يغضب الله، ويسبب الحزن لأحبابك»، فقلت لها ضاحكاً «ومن تحدث عن الانتحار. مازال عندي طريق طويل أمضي فيه، ألا ترين ذلك؟»، فربتت كتفي بعكازتها ومضت تدّب عليها مبتسمة. كنت أتمنى أن أفعل شيئاً يزيدني حباً فيه، وخطر لي أن أعلم شيئاً عن أهلي في الوطن الذي ابتعد عني كثيراً، وآنذاك قررت أن أحادثكم عبر الهاتف، فهرعت إلى أقرب مكان لأتصل بكم، فجاءني صوت غريب، فعلمت منه أن الأرقام قد تغيرت، فحزنت.

هو اليوم الثاني، لم يفصلنا عن الهادي سوى نوم قصير أشبعه المناخ الجبلي بالارتياح. كان الهادي يتحدث كلما اجتمعنا نحن الثلاثة، ولم يكن لنا سوى محاصرته بلهفتنا تطالبه بأن يتحدث أكثر وأكثر. تساءلت ليلى «وإلى أين وصلت في طريقك»، وقلت أنا «لاشك أنك مضيت دون توقف»، فقال الهادي «يبدو أن الطريق كله بداية» وقال مضيفاً «البحر يفسر لك الأمر. ماء البحر تشرب منه فيزداد عطشك.

هي ذي طريق الحقيقة». وقام إلى رف من الرفوف المكتظة بكتب من لغات مختلفة، وأحضر واحداً بالفرنسية جعل يقرأ فيه بعيونه ثم يترجم قائلاً «يقول الحكيم لاوتسي: خير ما في المسكن في الأساس، وخير ما في التفكير هو العمق، وخير ما في العطاء هو الإنسانية، وخير ما في الكلام هو الصدق، وخير ما في الحكم هو النظام، وخير ما في العمل هو المقدمة، وخير ما في الحركة هو الوقت الملائم. طوبى لمن لا يتنازع، هو وحده الذي تحصّن من الهوان». فتبادلت النظرات مع ليلى، لأنقلها إلى الهادي والذي قلت له «يبدو أن الحكمة كانت طريقك»، فابتسم يقول وهو يقلب صفحات الكتاب ليقرأ فيه من جديد «الحكيم لا يخزن لنفسه. إنه بقدر ما يعيش لغيره، يزداد ثراء. بقدر ما يعطي للناس، يزداد نصيبه. طريق السماء ينفع، بغير أن يضر. طريق الحكيم يعمل، بغير أن يتنازع». صمت لحظة ثم أكمل حديثه:

في الطابق الأرضي، حيث كنت أقترب بغرفتي العالية من السماء، عاشت امرأة وحيدة. قابلتها ذات مرة لتعلم أني أعيش وحيداً، أعمل في النهار وأقرأ في الليل، فأحاطتني برعايتها. كانت تنتظرني لتدعوني إلى شرب الشاي، أو أنها تقدم لي طعاماً، فاستأنست بها، وشعرت أن وحدتي بات لها نهاية في الحي الذي لم يتوقف عن غليان البشر فيه ليل نهار،

فأوقاتي وتقلبي في الأماكن المختلفة، لم يسمحا لي بنشوء صداقة مع أحد. وهكذا تعودت أن أطرق بابها كل يوم في عودتي، أزورها ونتبادل حديث الود. كانت قد فقدت زوجها، وانطلقت ابنتاها في الحياة الفرنسية بعيداً عن بيت العائلة، فقالت ذات مرة إنها بحاجة إلى الحب فقلت لها ومن ليس بحاجة إليه، فاستقبلتني في الليلة التالية كأنثى تطلب الوصال، فوجدت نفسي أغضّ عنها، وانشغل بجريدة يومية، فاقتربت مني تقول «هل أنت خجول؟» فهتفت بل أنا صديق، فصرخت «هل تظن نفسك المسيح!» فهززت برأسي نافياً أقول لها «ألسنا صديقين؟»، فهتفت بحرقة «بل أنت رجل شاذ». فنفيت بهزة من رأسي، وهتفت بحرقة «ولكننا وحيدين، أنت وحيد وأنا كذلك. ألا يحق لنا؟» فقلت لها إني الرجل غير المناسب لها. تخلصت من عبودية جسدي. فصرخت غاضبة «وهل الحب عبودية؟» فقلت لها «الحب هو الخلاص»، فهتفت «إذن، ألست أعجبك؟» ، قلت لها إنها امرأة طيبة ويسعدني أن نبقى أصدقاء، فقالت مادمت تعامل نفسك على أنك قديس، فلنتزوج وفق القانون الذي يرضيك، ووفق شريعتك التي تؤمن بها» فتساءلت «أية شريعة تقصدين؟» فقالت «تلك التي تختارها وتؤمن بها» فتمتمت بحياء «هناك شريعة الحب الإلهي التي أتبعها»، فتساءلت ملحة «ألست أستحق الحب!»

فأجبت قاطعاً «الحب لا يأتي من الجسد وحسب. إنه شعاع ينبثق من داخلك فيزداد ألقاً عندما يلامس السطح المناسب»، فنظرت إلي بحقد وزفرت بجنون.

لم يكن من اللائق أن أستمر مقيماً في العمارة، كما أنّ الحي بات ضيقاً عليّ، فانتقلت إلى الضاحية على حدود المدينة. عملت هناك في حدائق المنطقة، وأشرفت على ألعاب الأطفال في المساحات المخصصة لهم، فعثرت على لغة صافية تبادلتها مع الأولاد الصغار، فكانت البراءة والبعد عن الضوضاء وسيلتين للقرب أكثر من نفسي، فتفتح الأمل بشكل متسارع في أن أحصل على معارف أكثر.

هناك في الغرفة التي حولها صاحبها من كاراج تحيط به أشجار الغار، وتناثرت حولها شجيرات من أزهار متنوعة، تعلقت بكتب عن التصوف الإسلامي. بدأت أقرأ للسهروردي والعطار والحلاج، وازددت بهجة بمعرفة (ابن عربي) الذي سأسميه بـ (ابن كوني) لاتساع آفاق تجلياته وهي تتيح لك الطيران في سماواتها اللامحدودة، فلم يكن هناك أفق أو غيم أو هوة تحدك أو تعيقك أو توقع بك.

باتت لي صداقات جديدة، شعرت بأني تأخرت عن معرفتها كثيراً، فاستطعت بها أن أتابع الطريق وعن يميني بوذا

وعن يساري ابن عربي، ويرفرف فوق رأسي سرب من المفكرين والمتطلعين إلى حقيقة الوجود. تشابكت المعارف في ساحة الوجدان، فلم يكن هناك صراع بين واحدة وأخرى، وارتفعت مظلات فوق رأسي تعبر عن إنجازات الإسلام المدهشة، في البداية الصحراوية وفي الانتشار عبر الحضارات الغنية. وقفت على بساطٍ خيوطه من ديانات كثيرة كنت أسمع بها، فإذ بها تصاحبني في يومي وفي نومي. كان النور المفرط بإشراقه، هو ما يهبط علي عندما أطوي آخر صفحة في كتاب فلسفة أو ديانة، وكنت أتردد في تسمية الخالق، فإذ بي أحياناً أردد «الله نور السموات والأرض».

وفجر ذلك اليوم الذي ما عدت أذكر اسمه، استيقظت من نوم قصير يقظاً، وكأن عصافير تجمعت على زجاج نافذتي تنقره بإيقاع فرح، كان الضوء يغمر السماء، ويدعو آلاف الطيور لتسبح في فرجتها المتسعة بلا حدود. وكان ثمة لحن من صوت مليء بالحيوية يحيط بي، ويقودني لأخرج إلى الحديقة أتنفس هواء رطباً ملَكَ عليّ كل حواسي، وسمعت صوتاً عميقاً ينبثق كخرير مياه ينبوع تفجر من قلب صخور متلألئة.

قال الصوت منشداً «أيها الهادي ... أمعن في طريقك، فلابد أنك واصل».

- ٢٦ -

عندما توقفت عند آية من سورة الروم، توقف تنفسي ثواني معدودات ليعود مع صوتي يرتلها «ومن آياته أن خلقكم من تراب، ثم إذا أنتم بشرٌ تنتشرون»، وجعلت أكرر تلاوتها مرة بعد مرة، فانتهيت بفكرة الانتقال إلى مكان آخر. لم يكن ذلك استجابة للتغيير، بل رغبة سرية في توسيع رقعة المكان لروحي. وهكذا حزمت أهم كتبي التي أضاءت عمر الحياة أمام رحلتي القصيرة، فما من رحلة طويلة مادامت نهاية المسير هي التوقف أو الوصول إلى الهدف. وكان المتاع بالرغم من ثقله خفيفاً عليّ، فكانت العودة بحراً كما أتيت يوم البحث والضياع. اتجهت بكليتي إلى الرحمن بدعوتي إليه أن يدلني على الصفاء.

تذكر يا أخي شاهد أني طرقت الباب الذي ظلّ مرسوماً في الذاكرة بعد كل تلك السنوات. كان الوالدان قد رحلا، وقلت لي يوم استقبلتني وعائلتك الصغيرة أن الحسرة عجلت برحيلهما فقلت لك «أنه فراق مؤقت، فاللقاء محتوم».

ولاأنكر أني أجهشت في بكاء مرّ وأنا أستعرض الدار التي ولدت فيها. الرحم الذي ولدني بات في فضاء الكون الفسيح وعاء للذكريات، وبقي رحم المكان ترتسم على جدرانه آثار الزمن تذكرنا دوماً بأن عقارب الساعة تدبّ وفي ذراعها الألوان المختلفة تخلف ظلالاً وترسم تطور البشر والأشياء.

ويغلبني الحنين إلى الماضي فيتملكني خوف من العودة النهائية إلى مرتع الطفولة، لذا فقد قويت إرادتي في متابعة السير في الطريق. هتفت ذات ليلة، عبر تأملي عش حمامة لجأت وصغارها إلى الانتظار، وعلمت أن الضياء الذي سيشرق بعد قليل سيخرج الطير من سكونه، فمضيت مسافراً، وكان الوداع مؤثراً ولكنه لم يمنعني من اتخاذ القرار في الخروج إلى عالم جديد.

وحططت في خيمة شيخ قبيلة من البدو، انتصبت في الصحراء تتوسط خياماً عديدة على تخوم مرعى يمتد إلى الأفق. أكرمني الشيخ، واستقبلني رجاله بالترحاب بالرغم من تحفظهم. وفي اليوم الرابع قال لي شيخ القبيلة وهو يسقيني من قهوته «وما طلبك أيها الغريب؟». قلت له «إنما أطلب السكينة»، فقال مرحباً «أهلا بك في ديارنا مادمت تبحث عن هدفك».

أعطيت خيمة على حدود حيهم المتناثر. وأُوصيت ابنة الشيخ الصبية أن تلبي طلباتي فتقوم بخدمتي، وجميع أفراد الخيام الأخرى برجالها ونسائها وأطفالها للترحيب بي، فتأثرت بصدق التفافهم حولي، وبإصغائهم إلى حديثي عن الكون، وكأنني أحمل لهم حكاية سحرية من أعماق الأفق الذي يرسم حدوداً لهم.

كنت أطمح إلى تبادل الحديث في السهرات التي تعقد أحياناً بعد مغيب الشمس، وألاّ أكون المتحدث الذي يصغون إليه باهتمام، كنت أتمنى أن أستمع إلى رأي ما أو أي تعليق يغني بحثي الذي أتنقل بين الأرجاء والناس كي أستكمله. قال لي شيخ القبيلة وقد علم أني عشت سنين طويلة في بلاد الغربة كما كان يسميها «بعض من شبابنا يتطلعون إلى المدن يرحلون إليها ولا يعودون، وها أنت تمضي في هجرة معاكسة!» أجبته «إنما أنا أسعى إلى المعرفة» فقال لي «وما هي المعرفة؟». كنت أريد أن أتحدث بحثاً عن صيغ مفهومة من أهل الضيافة الكريمة، فأقابلهم شاكراً بتبسيطي، ولكني لم أجد سوى الكلمات:

- كيف تصبح البادية معروفة لديكم.

- بالرمال تحيط بتلال منها صخرية تنبت الأعشاب، ومنها متحركة لا تعرف لها قرار، ونحن بحاجة إلى الأعشاب التي تجتذب إليها الأغنام بعد مطر عابر.

هكذا أجاب، فقلت له:

- إذن فالرمال على كثرتها تخفي ما تريد، وتظهر ما تشاء، كي تدلك على شيء. البحث في حقيقة البادية هو نوع من المعرفة.

فلزم الجميع الصمت.

كانت الصبية تلحق بي وأنا أقف على طرف كومة ناتئة من صخر ورمال، وأتأمل الغروب، أو أنتظر الشروق، فتجلس بعيدة عني كحارس أمين، وهي تستند بكفيها تتأملني، كمن ينظر إلى ملاك من السماء يعد بتحقيق الأمنيات التي لم أعرف عنها شيئاً. لو أن ابنتي كتبت لها الحياة لكانت تقاربها في العمر. سمراء مثلها ستكون ولكن دون وشم بدوائر سوداء صغيرة تزين ذقنها، وكأنه لحن آية أو نشيد إلهي يضفي على الوجه البريء نوراً مشعاً.

قالت وردة، هذا كان اسمها «ما الذي تنظر إليه؟» قلت «ملكوت الله» فتساءلت «أهو المكان الذي يذهب إليه الأموات» فأجبت «الأحياء والأموات يأتون منه ويذهبون إليه» فقالت

متسائلة «أهو يشبه حينا الذي نحن فيه؟» فقلت لوردة «هل تحبين سكون الصحراء؟» فهزت برأسها مؤيدة، فتابعت «هناك شيء أكثر من السكون. هناك الطمأنينة يا ابنتي»، فهتفت بفرح غامر «إذن فقد ذهب جدي إلى مكان آمن»، فعلّقت بقولي «أكثر الأمكنة أماناً يا وردة». وقلت لنفسي متمتماً «أكثر الأماكن طمأنينة، فلاشكٌّ يعذبك، ولا عذاب ولا ألم. إنه اندماج الصغير بالكبير، فتذوب آمال البشر في حلم الكون». قالت الصبية «ماذا تقول يا عم؟» فأجبت «أحادث نفسي أخبرها أن الضوء قائم فينا ولو أظلمت الدنيا»، فرفعت حاجبيها باستغراب وكأنما لا تفهم شيئاً.

كانت لي وقفتان كل يوم، أشهد ظهور نور السماء وانطفاء الشمس، وبين الوقفتين كان الصمت والقراءة والسمر. قال الشيخ مرة «ما الذي يرميك في أحضان هذه الأسفار المليئة بالحكايات؟» قلت إني اتعلم، فهتف متعجباً «في مثل هذا العمر وتتعلم!» قلت بهدوء «لا يكفيني عمر واحد».

حدثتهم عن الأقوام الذين أتعرف إلى أفكارهم وعقائدهم، وحدثتهم عن المكان الذي نأتي منه ونذهب إليه، فإذ بالأرواح لكل البشر، بعيدين عن هنا أو قريبين، قلقين أو مطمئنّين، تأتي من نبع واحد لا ينقطع لحظة عن توليد النور، وتعود إليه.

إنه سحر الكون الواسع الذي لا يمكن لك أن تعرف إلاّ بمعرفة ذلك الينبوع. قال الشيخ «هل أنت من أهل الخطوة؟»، فضحكت قائلاً «ومن يقدر أيها الشيخ أن يتقدم خطوة واحدة دون معرفة؟» فقال «إذن أنت صاحب معرفة» فأجبت «أنا صاحب إرادة تمشي خطوات لا تنتهي من البحث عن المعرفة».

كانت وردة تلازمني يوم كسرت سكون البادية حادثة وضعت نهاية لإقامتي بين أولئك الناس، فقد همّ عليّ شاب مندفعاً بخنجر في يده يبحث عن هدف في جسدي، فصرخت وردة محذرة، فأمسكت بالذراع الغاضبة أمنعها من ارتكاب إثم لا يغتفر. كان قوياً أخذ من الفهد سرعته، ومن الغوريلا غضبها ومن الأفعى تربصها وغدرها، فاستيقظت قوة جسدي النائمة، واستجمعت عضلاتي مرونتها. كان الشاب وهو ابن عم وردة يطلق صيحات الحرب ويصرخ «الويل لك أيها الغريب» ثم يهتف بعنف «يا سارق القلوب»، فأمسكت بخنجره لألوي ذراعه فيصبح عارياً من السلاح، وما لبثت أن طرحته أرضاً، أشهر خنجره في وجهه، وقد انخفض معدل الغضب في دمي، استغفر الله، فأساعده على النهوض، ليقف الشاب مطأطىء الرأس بصوت خفيض «لم لا تقتلني وترحم كبريائي؟».

كنت خائفاً على وردة منك، فسحرك اجتذبها، وما عادت تسأل عني. هكذا قال، وصرخت وردة مؤنبة «إنه رجل مبارك أيها الشقي» وقالت «آنسني وكنت أظن أني أوانسه، وكشف لي عن ديار أهلنا الذين رحلوا بعيداً، فبدلاً عن تقبيل يديه الطاهرتين تريد قتله». آنذاك دمعت عينا الشاب ولبث صامتاً تغطيه سحابة من خجل، ما كنت أدرك كنهها، أهو الندم على فعلته، أم أن ظهور الضعف أمام محبوبته أخجله. وما لبث الشاب أن أفلت عائداً يركض كغزال هارب.

أصرت وردة على أن اغفر لابن عمها حماقته فابتسمت قائلاً «هو حقه، ولكنه تسرع في الحكم». وقلت لها متسائلاً «في أي يوم نحن؟» فهزت برأسها تعلن عن عجزها في تسمية اليوم، فقلت مبتسماً «هو يوم الغيرة يا ابنتي»، وقلت «يوم تخيم على الروح سحابة. فلا يكون هناك ضوء ينير طريقها، والندم سيجلي عن سماء روحه تلك السحابة ليعود الضياء». كل نفس تمرّ في ظلمة قاسية فننسى أن جمال الروح هو في رؤية النور دوماً.

وتزامن يوم الرحيل مع يوم انتقال القبيلة إلى أرض أخرى يكثر فيها الكلأ، فحزن الشيخ ودمعت عينا ابنته التي كانت

تساهم في حزم كتبي، لأمشي عبر الشرق أجر من خلفي الجمل الذي منحني إياه شيخ القبيلة، وكان في وداعي مصافحاً وبكلمة واحدة افترقنا «رافقتك السلامة».

لم تكن هناك مسافة أقطعها، فالصحراء مساحة لا حدود لها ولا إشارات. وعند بقايا آثار طينية على ضفة النهر نصبت خيمتي الصغيرة، وجلست وحيداً أتأمل. لم يكن هناك أثر لبشر أو كائن حي، وإن كانت رؤيتي قد اتسعت وأنا أعاين المكان، أتخيل الذين كانوا يشغلونه بالحياة منذ زمن بل منذ مئات أو آلاف السنين. آثار مدينة منسية غائبة عن الحضور تعلن بخرائبها عن حياة انقضت. كان شيخ القبيلة قد زودني بجرة من القديد، ما إن انتهيت منه بعد مدّة من الزمن، حتى لجأت إلى النهر أحاول صيد السمك. لم تكن لي خبرة، فمر عليّ جوع المعدة سبعة أيام كانت بعض الأعشاب النهرية تساعدني على مضغها، إلى أن ظهر بدوي حطّ بفرسه عند خيمتي فسألني عن قبيلتي، فقلت له إني إنتمي إلى ملكوت الله، فاستكان إليّ.

كان البدوي يتقن صيد السمك بقصبةٍ حملها مع بندقيته، فأمضينا وقتنا نتسامر في أحوال الصحراء والقبائل التي قال إنها نبذته فلا يعرف استقراراً، وإنه وثق بي وإنه لن يسأل عن

وحدتي في هذا المكان المجهول، وقد سمع أنه مليء بالشياطين يظهرون ليلاً على كل غريب، فابتسمت أقول له «نحن لا نخاف إلاّ من المجهول، والمجهول عندما يسقط عليه النور يصبح معلوماً»، فتلفت حواليه وكان المغيب قد خلف وراءه عتمة خفيفة فقال «أي نور يا عم!» فسألته «ومن أين يأتي النور؟» فقال «لابد أنه الزيت حين تشعله». قلت «ومن أين يأتي الزيت؟».

أغمض عينيك يا صاحبي، وفكر قليلاً من أين أتيت وإلى أين تمضي. ستجد أن النور هو الذي يمتد عبر طريقك. هل تؤمن بشيء؟ فقال إنه يؤمن ببندقيته وحصانه وقال أنت لا تملك مثلهما، فقلت «أملك الحق بي ومعي»، فهتف متأثراً «ولكنهم ينكرون علي حقي في أن أكون منهم»، فقلت له إن الحق هو الكل، وأنت في مأمن إذا ما شعرت بأنك جزء صغير من كون كبير.

- ٢٧ -

ما أوسعها من أرض، أرض الله المترامية تحدها الأرواح الهائمة. وهكذا كان التأمل يخلق حركة بين الرجال والأعشاب الصحراوية، كما فعل بين صخور الجبل وأشجاره التي ترونها، الفضاء المنفتح ككتاب أمام بصيرته، سجلت على صفحاته بلغة غير مدركة، ولكني وجدت معادلاً لغوياً، فإذا باللغة تشرح كمال الكون وخالق الكون. جلت في البادية السورية، وعقدت صداقات مع رمالها ورجالها، وتعلمت من النساء معنى العمل تتجلى في صعوبته عبادة يسره. وانتقلت إلى المدن الصغيرة تضيق بأفكار أهلها، فحاولت كسر انغلاقها. كنت أودع بحفاوة أحياناً، وكنت ألاحق بالضيق أحياناً. فقالت ليلى «وإلى أين تمضي بجهادك هذا؟» فقال الهادي مبتسماً «إلى ازدياد المعرفة، فالحقيقة بالرغم من تشوشها أحياناً، تتضح لي في أوقات كثيرة».

وكان مساء اليوم الرابع. فلم نستطع أن نغادره بعد. ولقي بقاؤنا معه ترحيباً من ليلى التي لم تتوان لحظة عن إظهار

انشدادها إليه. قال إن طموحه في حياته الباقية أن يستمر في التنقيب بهمة في أرض التساؤل الذي يؤرقة بين حين وآخر، فالكون ليس مبسطاً كما تراه العين، بل أن جيولوجيته المعقدة تمتد في زمن لانعرف قياسه، فالمكان هو الزمان والزمان هو المكان. كنت أتمنى أن امتلك جناحين كي أطوف في كهوفه النهائية، أن أعاين ضياء ظلمته وإشراقة نوره. انتظر لحظة الاندماج فيه، لأنه بالرغم من ضآلتي أحس بأني جزء منه، وهكذا أريد أن أراه كما يراني. أريد أن أفهم كل ما قيل عنه في كل اللغات التي قالت فيها الأقوام والأمم. لقد أثارني كونفوشيوس مرة يقول إن الفضيلة ليست مضادة للرذيلة، وإنما هي بالأحرى فضيلة باطنية ملازمة، وأثار فيّ بوذا فضيلة الزهد أملاً في حل لمشكلات الوجود البشري. ونبهتني آية من القرآن العظيم تقول «ولله المشرق والمغرب فأينما تولّوا فثم وجه الله». وجعل يتمتم بهدوء «هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم».

وتدخل على جلستنا الصافية، امرأة شاكية، ثوبها الريفي قد عفره التراب، وكانت هاذجة تصرخ: علمتنا التأمل، فازداد زوجي شراسة، يضربني، وها هو يسعى، وقد أثمر التفاح، إلى الزواج من ثانية»، فدعاها الهادي إلى الهدوء

بقربه لتجلس وقد التزمت الصمت، ليقول «لم تهدأ روحه القلقة بعد، فساعديه» فعادت إلى الغضب تقول «أأساعده على خراب بيتي؟» فقال يطمئنها «سأبذل جهدي غداً في مساعدته لفعل الصواب» فأفلتت المرأة عائدة كما جاءت وهي تتمتم بعدم الرضى. آنذاك قال «نحرث في أرض الله كي تنبت الطمأنينة، ويحرثون في التراب كي يتفتح الشوك».

كنت أنظر إلى ليلى، وكأني أراها بعد زمن طويل من الغياب، أفكر في احتمال يوم لا أراها فيه، فتضيع مني كما ضاعت من قبل أيام العمر. أحسّ بدبيب الشيخوخة بالرغم من يقظة العقل المتحفزة، وأحس بها شباباً متفتحاً وكأنها أمة كاملة، تخلصت من ثقلٍ استعمرها. متألقة كانت، ولكنها تثير شكوكي حول تعلقها بي كما أتعلق بها، وهي تصغي بكل مسام جلدها إلى حديث الهادي. لم تكن هي الغيرة، ولكنه إحساس بالنقص أني عشت على الهامش طوال حياتي، بينما نصفي الآخر أو شقيّ المماثل، يحفر بتساؤلاته العميقة في أرض المعرفة الواسعة. هتفت مخاطباً الهادي «أمضينا وقتاً كافياً، ولست أخاف عليك بعد الآن. لقد حان موعد الرحيل» فقال «لتقل موعد العودة. أما أنا فلا أعود إلى النقطة نفسها. أدعو لك أيها الأخ الحبيب، أدعو لك أيتها الأخت، أن

ترافقكم السلامة وأن تدخل الطمأنينة أبداً إلى قلوبكم». فأثار هواجسي، فمن أين لي الطمأنينة وقد درت حول نفسي طوال العمر. كل ما كتبت وكل ما قرأت، كان الدافع فيه أن أكون أوأن أحقق ذاتي. والآن ينكشف الستر عن جوهري، فأرى فيه زجاجاً مسطحاً، بينما الهادي يتحول إلى كتلة من الكريستال الذي لا تعد سطوحه المتعددة تعكس كل شيء.

وكان الوداع حميماً، فظهر التأثر الرضي على وجه الهادي، وتعانقنا بلهفة تحاول أن تعوض فراق السنين، بل هي أكدته، فقد ركبني شعور أن لقاءنا لن يتحقق مرة أخرى، فرجوته دامعاً أن يعتبر بيته الحلبي نقطة في مسيرته التي لا تنتهي، فشدّ على يدي يقول «نحن نريد والله يفعل ما يريد». وتفاءلت بوداعه الأخوّي لليلى التي بدا عليها التأثر، إنه قد يعود إلينا ذات يوم.

ومضينا في طريق العودة. كنا صامتين، نحمل كلمات الهادي التي مازالت تجوس كالعسس في فضاء الروح، وكأن المغيب قد جاء قبل وقته، بينما الشمس تسقط علينا حنونة. وهكذا ابتدأت رحلة العودة لتشتعل من جديد مخاوف القلق. كنت ما أن أعثر على كلمة أفتتح بها جملة أنوي قولها، حتى تضيع تلك الكلمة في زحمة الأفكار التي كان الرأس يعجّ بها

كساحة كبيرة باتت تضم عشرات الفرق المتناحرة، فجأة نطقت ليلى بالذي فتح لنا أبواب الصمت على حديث مشترك «انظر» وأشارت بيدها إلى رأس جبل كسته الأشجار بالاخضرار، وهتفت قائلة «كأنها قبة مفتوحة للسماء يتأمل من تحتها الشيخ الهادي»، وقالت «تعلمنا الكثير منه»، وهتفت متحسرة «كان كنزاً تأخرنا في الكشف عنه».

وظل الهادي مقيماً معنا. كان ثالثنا وكأنما خرج من إهابي ليتصدر السيارة من خلف يظللنا بنظراته تخترقنا طوال الطريق. وإذ نصل الدار تدعوني ليلى إلى كأس من الشاي فأطيع لا أنبس بكلمة. هناك تابعت ليلى قولها «هل تعلم أني نسيت أحزاني السابقة، فسقطت أحداث تاريخي في فجوة خبرته لتتحول إلى سلسلة من تجارب تبعث على الصفاء». كنت في مقعدي أنتظر سيل كلماتها علّها تنفعني في إيجاد ما أقول، ولكنها علقت بقولها «هل أعترف لك بأنك دخلت حياتي في الأوقات القاسية، وأن الهادي دخل حياتنا في الوقت المناسب، لك ولي». أجبت بعد قليل وأنا أستعد للنهوض مقرراً العودة إلى الدار «سنعاود في الغد عملنا في إلقاء النظرة الأخيرة على أوراق المرحوم الجابر»، فقالت «هو ذاك ما سنفعله».

كنت أعلم أن الوحـــدة تنتظرني خلف باب الدار الذي دخلته بهدوء، وقد علمت أنه لا مفاجأة تنتظرني. ناديت على قطي الماكر، فأجاب الببغاء من قفصه الذي امتلأ بالحبوب وأوراق خضراء، مردداً اسمي بشوق. ويبدو أن علية اهتمت به في غيابي كعادتها. وظهر القط بينما كنت أعثر على ورقة مكتوبة على طاولتي من علية تذكر لي أن زوجتي اتصلت من بلاد الغربة، وكان يرسل مواءه الودود فاحتضنته، وانثالت الأفكار عليّ في جلستي على طرف السرير وأنا أعيد قراءة الرسالة. هجرتني زوجتي لتظهر ليلى من جديد، واكتشفت حقيقة الهادي المنيرة، فهل تقودني سيرته إلى البحث عن الحقيقة. ولكن ما هي الحقيقة؟

هل علي أن أمشي على خطى الهادي في مسيرته المتنقلة الطويلة؟ أم أنني أصحح مسيرتي وأبدأ من جديد. خرجت ليلى من عتمة الغرفة مشرقة تنشر الضياء والبهجة، آنذاك رفعت سماعة الهاتف أطلب استراليا فجاءني صوت ابني وكأنه يصحو لتوه، فرحب بي وقال إن أمه تريد أن تحادثني، فسمعتها تسأل عن أحوالي وصحتي وتعلمني أنها اتخذت قراراً في البقاء إلى قرب حفيدها الذي يحتاجها، وكذلك تنتظر الثاني الذي سيقدم إلى الدنيا بعد مدّة، وقالت لي أمامك

خياران، أن تلتحق بالأسرة فنحن بتنا الأغلبية، أو أن تمضي حياتك كما تشاء، وتركت لي فرصة للتفكير فهي ستعود إلى الحديث معي بعد أيام.

طرقت باب ليلى في الصباح التالي، جئتها في غير الموعد، وكنت أعلم أنها تستيقظ مبكرة كل يوم، لتمارس المشي عشرات المرات حول الدار، ثم تفتتح يومها المنزلي بالقراءة. وفتح العجوز الباب فأشرق وجهه لرؤيتي، فشعرت بأني أحبه أيضاً. دعاني إلى الدخول فكانت ليلى التي سمعت باسمي تتقدم خطوات من ركننا ببيجاما الرياضة، فالتقيت بها معتذراً أني أتيت دون إعلامها بالهاتف، وفي غير أوقات عملنا، فابتسمت تتقدمني إلى ركننا الهادىء.

كنت ألملم قواي على قول شيء، لكنني مكثت ساكناً أستمع إليها تقول إنها بدأت تشعر بشيء ما في حياتها جديد، فقلت لها متردداً، أنا بعكسك يا ليلى لشعوري باستيقاظ شيء قديم، فقالت ما عدت أفكر بالقديم وأريد أن يكون (الجديد) هو الطريق.

كيف أكون أنا الجديد، وما زلت امتداداً ليقظة الماضي، ولكنني كتمت هاجس القلق لأظهر واثقاً في حديثي إليها

«أعلم يا ليلى أن سنواتك السابقة كانت مثقلة بالآلام، ورياح الزمن كانت قوية عليك، ولم تصلح التقلبات التي مررت بها فزادتك قوة. كنت معجباً بك منذ البداية، ولم أدرك أن اختفاءك في بحيرة الهموم سيخرجك نوراً أضاء ظلمتي».
وأطرقت ليلى كمن غلبه التأثر، وتمتمت بصوت وصلني بصعوبة «وأنا أبحث أيضاً عن ذلك النور».

هل يمكن لنا أن نبني حياة أخرى، تتجاوزين بها أحزانك، وأتخطى أنا السنين العجاف التي جعلت مني جامد العقل والروح. وهكذا استجمعت شجاعتي لأقول «هل يمكن لنا أن نكون شركاء في المرحلة القادمة؟»، فقالت «تجمعنا هموم وأفكار مشتركة، ألا يكفينا ذلك؟».

فانتفضت كشاب في أول حب صعب يمرّ عليه، وقلت حاسماً «ولكني أحبك». ثم بهدوء كسير «حقاً، إني أحبك» وتساءلت «وأريد أن أعرف ما هو بقلبك بالنسبة لي» فقالت دون تلكؤ «أنت من ساهم في العزاء الذي قدمته إحاطتك لي» وقالت «أنت في كل جانب من حياتي الآن، تساندني بحنان لم أعرفه من قبل»، فهتفت «والحب!»، قالت «أبحث عن شيء لا علاقة له باللغة المتداولة» فتساءلت «الطمأنينة!» فقالت «هوذا التعبير المعقول»، وعدت إلى التساؤل

الملح «والحب يا ليلى؟»، فقال إنه سلم لبلوغ الطمأنينة، ثم بعد لحظات «أنت الأكثر حضوراً في حياتي» وأضافت «ظهرت في يوم عاتم، فأنا مدينة لك بكثير من الضوء الذي غمرني»، إلا أني هتفت بحرقة «ولكنني أحبك». قالت إنها تحسّ بصدقي وتتمسك به، فناديتها برجاء «ولا أريد أن نفترق». قلت بعد دقيقة تحمل هول انفجار قادم «هل تقبلين بي رفيق درب، أن نتزوج لنكون دوماً معاً».

لا أستطيع أن أرفض طلباً منك، فأنت أشعلت الشمعة التي أطفأها كثيرون. وقالت إن مثل هذا الإعلان هو الأصدق الذي تثق بمستقبله، وأي قول يخرج عني إنما هو وثيقة واضحة لا تحمل أي احتمال للتخوف من الأيام القادمة. خرجت لي من وراء ستارة الآلام والأحزان، فكانت إطلالتك كمن يحمل سحراً، رماداً جعلت ترشه على الماضي، فاختفى الشايط الذي لا تشبعه نعمة، وطار الشيخ الشريف في سمائه التي خلتها ترسل بأشعة قد تحملني إلى السعادة فإذا هي نتف من غيمة سوداء، تبخرت ذكرى البني، كما لحقت بها أيام حكمت الشجاع. كنت أيها العزيز بحنانك الذي غطى نشيد الموت من حمل الجابر إلى الغيب. كنت لي أجمل شعور انساني يغمرني.

هتفت «أحببتك وسأظل أحبك»، ولا أطلب سوى الرفقة على درب نصعد فيه سوية إلى مدارج السعادة والضوء»، فأطرقت لتقول بعد لحظات «لنبحث عن صيغة أكبر مما هو مألوف، تعطينا المعنى الشامل» وقالت «لم نعد شباباً نندفع مع نزوات الجسد. هيا نمضي معاً نتبع نداء الروح»، قلت لها بنزق «هل أقول إنك لاتبادلينني أي حب!»، فهتفت بحرارة «بل كل الحب، وهذا ما يجعلني أطلب راجية أن تكون الحكمة مؤشراً لنا نتبعه».

مع كؤوس الشاي قالت «يمكن أن يجعل ارتباطنا أقوى إذا ما أطلنا التفكير» ونظرت إلي بجدية أخافتني «ماذا تطلب مني؟» أجبت «أن يجمعنا الحب في ارتباط قوي» فقالت «وأنا أطلب منك أن نعطي لأنفسنا فسحة من التفكير في المستقبل، كما أريد أن ننتهي من نشر أوراق الجابر، ثم أن أمنيتي هي في أن يأتي الهادي ذات يوم ليبارك أية خطوة نتخذها»، فهتفت من فرح يذكرني بلحظات الانتصار «بداية جيدة» فقالت لي «معك دوماً الأمور تكون جيدة».

- ٢٨ -

كنت أفكر في الشروط الثلاثة التي ألمحت إليها ليلى دون أن تفرضها، ولهذا خرجت من دارها لأندفع في طريقي مباشرة إلى الضيعة الجبلية حيث الهادي الذي كان هو الأساس في تلك الشروط. كنت أعلم أنّ أخي وشقيق روحي لن يرفض لي طلباً، فروحه التي اتسعت لتشمل الكون، ستدرك معنى مشاركته سعادتي. وفي الطريق الذي ينتقل من أشجار الكرز إلى سهول القمح ثم الغابات التي تكلل المعارج الخطرة، كنت أفكر وأحلل وأقلب كلام ليلى في ردها على طلبي الذي ظهر لي موافقة بشروط يقبلها العقل. وكأن نصيحة جدّنا الذي حافظ على مناماته لحفظ الذاكرة المنهوبة والمليئة بالأحداث اليومية المتعاقبة هي التي قدمت لي النصح في العمل جاداً في إنهاء العمل الوثائقي المتعلق بالجابر. أما مهلة التفكير التي نادت ليلى بها لتحديد المستقبل، فأظنها منتهية لأن الحب القديم عندما يستيقظ فإنه يعني أنه كان مختبئاً في اللاشعور سنوات طويلة وظهر كما تكون الشعلة المتألقة، وهجرة الحب مهما

طواها النسيان فإنها تتوهج في اللحظة المناسبة ويزيدها قوة أنها صقلت على نار التجارب وبفعل الفعل المتفتح ، لتصبح ضرورة لابد منها، ويبقى حضور الهادي! .

كان الوصول إلى الكوخ ماشياً أجمل رياضة مارستها، فكنت أعاين كل خطوة على أنها اقتراب من الهدف . سأقول له إننا نريده ولو لليلة واحدة يكسر فيها إيقاع تأملاته ليكون شاهداً على زواجي من ليلى . أليست مباركة زواج حب عملاً يتصل بعبادته! .

وبدا الكوخ أمامي واضحاً وقريباً، فانتفض قلقي من اعتذار قد يبديه الهادي بدماثته المدهشة، ثم طرقت الباب فلم يستجب لي أحد من الداخل، فهتفت منادياً على الشيخ الهادي، فخرجت من خلف البناء تلك المرأة الجبلية تتوكأ على رفشٍ وكأنها تركت لتوها العمل في البستان الخلفي . ألقيت عليها التحية وسألت عن الشيخ فتأوهت ثم عبست وهي تقول «غادرنا الشيخ، فترك لنا الوحشة» . هتفت بحسرة أسألها «متى ... وإلى أين ذهب؟»، فقالت «جمع متاعه، وكتبه كانت ذلك المتاع ومضى بالحمار بعيداً . لم تنفع توسلاتنا . قال إنه سيحط رحاله في مكان آخر، وأنه يدعو الله أن يهدينا ويوفقنا» .

أدخلتني الغرفة التي كان يستقبل فيها، وهي تقول «قال لنا إنه كلّما انتشر ضوء صباح جديد، ازدادت حاجتنا للنور، وأوصانا ألاّ نترك للنور فرصة يغيب فيها، وقالت «إن رحيله كان في اليوم التالي لمغادرتكم المكان». رجوتها أن تدلني على اتجاهه فابتسمت قائلة «كل الاتجاهات هدفه، ومن يدري؟». كان الكوخ عارياً من الأنس الذي كان يملؤه بالحرارة، فوجدت كل شيء بارداً، وزاويته المتصدرة تئن من الغياب. صحت بصمت «يا ويلي!» فكان تعبير وجهي قد أثار المرأة الجبلية فتساءلت إن كنت أعاني ألماً!.

كانت خيبتي في غيابه، أقسى من زمن عجزي عن الكتابة في السنوات الأخيرة، وتحولت السفوح المنتشرة حول الكوخ إلى كثبان اختفت منها الأشجار والمنازل التي ألفتها من قبل. هل أخسر معركة الحب؟ أم أنها بداية بحث طويل؟ أهي بداية ضياع بينما الهادي يجد نفسه في أية لحظة؟ هل أقول إنه هو الذي حقق ما يريد، بينما أتخبط أنا في نهر القلق المتدفق منذ البداية وحتى تلك اللحظات الأقسى؟.

صرخت في طريق العودة غيظاً امتصه صندوق السيارة الهادرة، وركبني اليأس لأنني لم استطع أن أحدد مكاناً يمضي إليه فأعرفه. كانت رؤيته للأمور تختلف عن أي تصور لي،

لكنني قررت في لحظات اليأس تلك أن أبحث عنه ضمن أي تصور يخطر لي وأنا أبحث في جغرافية منطقة ما.

توقفت عند مخفر للشرطة على الطريق العامة، أستفسر من الضابط الذي كان لطيفاً ليدلني على المناطق المأهولة بالبشر لتلك الجبال. وقر في نفسي أن الهادي يبحث حتماً عن نقاط بعيدة، قريبة من الفضاء الذي يمكن أن يتأمله، وعلمت بعد يومين من البحث في الشعاب والسفوح وقمم الجبال وفي القرى العالية المطلة على البحر، أن الشيخ الهادي معروف من كثير من سكان الجبال ويذكرونه بإجلال ولكنهم يجهلون مكان إقامته الآن، وبالرغم من مروره بهم إلاّ أن اقامته القصيرة خلفت أثراً لا يمحى في نفوس الرجال والنساء وكذلك الأطفال. كان رحمة متنقلة، وخلّف رغبة صادقة في النفوس أن تتجه إلى الخالق بالتفكير العميق وبالشكر لنعمائه التي تجلت في النور المشع والظلال المشبعة بالهدوء والسكينة وبالسحب التي يحيي تهطالها الغزير آمالاً تنعكس عليهم وعلى حيواناتهم ومزروعاتهم خيراً يذكرهم دوماً بالشيخ الهادي.

وحاولت في يوم ثالث أن أمسح الشاطىء الذي يغسل أقدام الجبال، وقلت لنفسي أنه جال في الصحراء وتنقل في الجبال، وها هو البحر مرشح لوجوده على شاطئه. ولكن

بحثي رُدّ علي بخيبة دفعتني إلى لململة فشلي والعودة إلى المدينة فقد تدرك ليلى الحقيقة التي لم أجدها .

واستقبلتني ليلى بشوق ظاهر، وكأن اللهفة أفلتت منها وهي تطمئن على غيابي، فقلت لها خائباً « ضاع مني الهادي» فإذ بها ترد بثقة « لابد من ظهوره ثانية»، ثم تنتقل إلى الأوراق أمامها، فعلمت أنها جادة في الانتهاء من ذلك العمل، وأن الموضوع ذاك هو الأساس، فوجدت أني أتابع العمل معها .

وظلّ موضوع الحب غائباً عن أحاديثنا التي اقتصرت على استكمال الشكل النهائي للمذكرات قبل دفعها للطبع، فزاد حبي لها وتقديري لوفائها . تابعنا مشروعنا صباحاً ومساء، وكان الاهتمام به يساعدني على تحليل الأحداث والأفكار التي كانت تدور حول تلك الأوراق وكان التعليق عليها، سلباً أو ايجاباً، تأييداً أو استغراباً، يجمعنا في صف واحد فكأننا فريق يلتحم بعضه ببعض، وأحسست أن استغراقنا في العمل يبعدنا عن الحديث عن همومنا وطموحاتنا الشخصية .

أشعرتني ساعات العمل أو لحظات الحديث الودي عن كتاب تقرأه، أو عن الهادي تصف قدومه المتوقع وأنه نصفي الآخر الذي أكتمل به، إني أخجل من تكرار طلب الزواج منها، وقالت مرة «لا أخفيك، أني كثيراً ما تخيلتكما شخصاً

واحداً له وجهان متطابقان. أنت الفعل الدنيوي المثمر، وهو الفعل السماوي المبهج، ولا أخفيك إنني لا أحتمل انفصالكما عن بعضكما البعض، فكأنما تحولتما إلى كيان مندمج، كطير يحمل من يعرفكما إلى آفاق بعيدة». وهتفت بعد قليل «لأول مرة أشعر بانفصالي عن الواقع الذي وقعت فيه أكثر أيام عمري وكأنه فخ لانجاة منه، أشعر أن طائراً يحملني على جناحه ليطير بي عالياً، فيكون كل ما أراه واضحاً من غير تعتيم. انني أرى المستقبل، وأطمئن إليه. قلت بضعف غلب علي «وإذا لم يعد الهادي، ولم أستطع أن أعرف مكان وجوده؟» فقالت بثقة «اعلم أنه سيعود».

ظلّ خوفي قائماً من أن أعيد تذكيرها بالشروط الثلاثة، ولكن حماستي بعد مدة دفعتني لأهتف «الآن تحقق شرطان من ثلاثة، مضت مدّة مناسبة للتفكير، وها هي المذكرات تجهز للطباعة. لم يبق سوى حضور الهادي!» فقالت معاتبة «وهل تشك في عودته؟» أجبت بقلق «إنما هو الخوف من تجواله الطويل، من يدري!» فقالت مطمئنة تقاطعني «أمامنا الوقت. الزمن بات جديداً، وما عادت مقاييسه كما كانت من قبل. ألا توافقني على ذلك؟» فهتفت خائفاً «وإذا لم يعد!» فقالت «أنت آخر من يشك».

وانشغلنا في مراسلات واتصالات حول نشر الكتاب.
وانزوت العواطف في ركن عميق، كما أن استمرار غياب الهادي، مع قرار ليلى في طباعة الكتاب على نفقتها، أدخلنا في طور جديد. أدهشتني فرحتها وهي تتسلم النسخة الأولى، وتهتف بفرح طفولي حقيقي «لقد تحققت الأمنية»، فيدفعني طول الانتظار إلى العودة إلى الكتابة التي غابت عني وغبت عنها، فأبدأ في عمل يحقق بعض الخيالات والصور والأفكار التي نمت في روحي منذ زمن. ابتدأت الفكرة بتاريخ بلد يمتد من ظلام العثمانيين مروراً بقيود الاستعمار الفرنسي وانتهاء بنزوع كامل عند الناس لرؤية المستقبل بشكل حر يحمل الأمل. وكانت ليلى تقرأ أي فصل انتهي منه وتشد على يدي، وكانت تقول «هو ذاك ما يطلب منك أن تفعله»، فأغوص في تأملاتي التي تثمر لغة حية تعد بروح جديدة تلبستني، فأرى ليلى وكأنها أرض تزهر نباتاتها وتتألق بعطرٍ يملك عليّ أنفاسي، فأتقدم يوماً بعد يوم في طي سنين البلد التي اكتست ملامح الحبيبة التي لا تشيخ، ويطل علينا الهادي بين فصل من الرواية وآخر، وهو يبتسم في وجهي ويدعوني إلى المضي قدماً في الكتابة، فصار انتظاره متعة تتجدد مع احتمال عودته الفعلية. وتربطني بليلى قيود أكثر من التقارب الروحي،

تحولت مع تقدم الأيام إلى رغبة علوية أتأمل فيها جمالاً كآية سحرية، تعبر سمعي مع كل صباح مشرق تتفتح فيه أزهار لايمكن إلاّ أن تبعث في النفس أملاً وسعادة.

وهكذا مع تقدمي في ملاحقة الأحداث التي مر بها الوطن، بدأت شفافية العلاقة بليلى تمنحني نوراً يختلط فيه عذاب الانتظار بأمل المضي بعيداً في فتوحات جديدة تحققها روح تتوق إلى تأمل مستقبل لا يحمل سوى النور يضيء ما يحتمل أنه كهف أو فجوة أو فراغ.

حلب ايلول - سبتمبر ١٩٩٩

١٥٠٠ ط١ / ٦ / ٢٠٠١



مطابع وزارة الثقافة

دمشق - ٢٠٠١

سعر النسخة داخل القطر

١٢٥ ل.س

في الأقطار العربية مايعادل

٢٥٠ ل.س